السَّرْدُ وَالوَصْفُ فِي الخِطابِ الرِّحْلِيِّ الْمُتَرْجَمِ
(رَحَلاتُ الغَربيِّينَ إِلى شَمالِ الجَزيرَةِ العَربيَّةِ أُنْمُوذَجاً)

د، محمد بن راضي الشريف

قسم اللغة العربية - كلية التربية والآداب

جامعة الحدود الشمالية

السَّرْدُ وَالوَصْفُ فِي الخِطابِ الرِّحْلِيِّ الْمُتَرْجَمِ
(رِحَلاتُ الغَربِيِّينَ إِلى شَمالِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ أُنْمُوذَجاً)

د، محمد بن راضي الشريف
قسم اللغة العربية - كلية التربية والآداب
جامعة الحدود الشمالية

تاريخ تقديم البحث: ٢/ ٢/ ١٤٣٩هـ **تاريخ قبول البحث: ١٧/ ٤/ ١٤٣٩هـ**

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى معالجة قضية نظرية من خلال تطبيقها على عدّة رحلات متقاربة زمنيا ومكانيا، أنجز أصحابها الغربيون عبرها خطابات رحلية تتحدث عن شمال الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين. كما يأخذ البحث على عاتقه مهمة إبراز الغنى النثري للخطاب الرحلي الغربي المترجم، حيث دأب منشئو هذا الخطاب على وصف الأماكن والأشخاص والعادات والتقاليد بعناية خاصة في كافة مجالات الحياة، وتلفيظ محكي السفر واعتماده الوصف بحيث يظهر مرتكزا له، يخلص البحث إلى أن الخطاب الرحلي نص يزخر بالتسجيل الوصفي والحكائي وينقل الكثير من المعلومات، ومن ثم فهو نص جدير بالدراسة الجادة المتعمقة بأدوات فنية متخصصة، تبرز ملامحه في إطاره العام، وخصوصيته التي تحقق له فرادة لا يشاركه فيها نص رحلي آخر. من هنا نستطيع أن نصل إلى ذاتية الكاتب وتحري طريقته الخاصة في إنشاء نصه وتبيان الوشائج التي تربط هذا النص بنسق الخطاب الرحلي السردي وصولا إلى الأدبي.

كلمات مفتاحية: الخطاب الرحلي - السرد والوصف – التخييل والتجسيد – رحلات الغربيين – أدبية خطاب الرحلة.

توطئة

تبدأ رحلة الحياة منذ أن تطأ قدم الإنسان هذه الأرض ويمشي في مناكبها. وإذا صح لنا أن ندرج الشعر العربي بأغراضه المختلفة تحت موضوع الوصف، فإننا لن نجافي الحقيقة عندما نعدّ كل فعل وكل قول للإنسان جزءا من خطاب رحلة؛ فالحياة عبارة عن رحلة.

يشير المعنى اللغوي لكلمة (رحلة) في المعاجم العربية إلى انتقال الإنسان من مكان إلى آخر، ذلك الانتقال الذي مارسه العديد من البشر على مر العصور، ولم يحفظ بالكتابة منه إلا أقل القليل، فالبشر منذ الخليقة يقضون أعمارهم في رحلات متنوعة صانعين فعل الرحلة، لكن صنيعهم لم يتحوّل إلى خطاب، وهناك من استخدم ما اكتسبه خلال رحلاته من معرفة وتجربة في كتابة لا تمت بصلة إلى الخطاب الرحلي الذي نسعى إلى تبئيره.

في الرحلة انتقال وحركة، والرحلة الموصوفة تدوين خطاب تُحكى فيه الأحداث والمشاهدات والمعارف والانطباعات الذاتية، لكن على الرحالة كاتب الرحلة أن يتزوّد بمستوى ثقافي معين يؤهله ليكتب خطاباً مائزاً.

إذاً فـ"فعل السفر لازم وجود في الخطاب الرحلي، وبانتفائه تنتفي مشروعية نعت خطاب ما بالرحلي، ولا يتحقق السفر إلا بالحركة، فالرحالة يسلك طريقه صوب المجهول المختلف عما ألفه – وهذا الاختلاف هو مبرر كتابة الخطاب الرحلي - ...، فهو يحفر ذاكرته مستدعياً أخباراً

من مرويات ومقروءات سابقة، أو يخبر عن اللحظة الآنية وفق ما يسمى بالعيان، وقد يتوهم استشراف الآتي عند سرد خيالاته." [1] فليس خطاب الرحلة إلا جزءاً يسيراً تم اقتناصه وتوثيقه من قبل الرحالة سواءً أكان عن رحلة واحدة أم من رحلات كثيرة قام بها. فالإنسان عندما يكتب أو يتحدث عن رحلته يصور ويصف خلجات نفسه وأفكاره وقناعاته تجاه الكثير من الجمادات والأحياء، كما يصف الآخر إنساناً كان أو حيواناً أو جماداً أو حتى مكاناً وزماناً.

يقوم دارس الخطاب الرحلي بل قارئه أيضاً برحلة داخل رحلة؛ إذ "القراءة رحلة لا تقل عن الفعل الرحلي نفسه؛ لأنها مغامرة خطرة بين السطور وأحراش الكلمات وأدغال الصور والاستعارات، وفي رحلة القراءة تتأسس الكتابة الرحلية من جديد. وتزداد القراءة خصوبة وإبداعية كلما تجاوزت حدود نقل المعلومات أو مجرد الأخبار إلى أهداف جمالية، أي حين تصبح على حد تعبير رويل ويلسون أدباً، وحين يُعْقَدُ القِرانُ بين الرحلة والكتابة يُولَدُ الأدبُ السعيدُ، لترعاه القراءة السعيدة، ويخرج أدب الرحلة من دائرة الأدب بمعناه العام ليدخل بوتقة الأدب اللذيذ المطابق لمفهوم الكتابة."[2]

يُعَدُّ تحديدُ خِطابِ الرحلة من حيثُ الجنسُ من الصعوبة بمكان؛ فهو كائن زرافي تعتوره عدة فنون، ويسير في أنساق عدة مختلفة المهايع

(١) السرد الرحلي والمتخيل في رحلتي السيرافي والغرناطي، أريج السويلم ص٣١.
(٢) الرحلة وسؤال الكتابة، عبد النبي ذاكر ص ٢٣٩- ٢٤٠.

والمشارب، وتَدّعي نسبته جهات كثر قد يُثبتُ انتماءه لها ملامح بارزة بينما يحتاج إثبات نسبته إلى عالم الأدب أبحاثاً جينية دقيقة تؤكد هذا الانتساب الذي قد تكون وشيجته خفية لا يدركها الكثيرون، وقد تكون هذه السمات والوشائج الخفية أقرب إلى روح الأدب من أجناس أدبية أخرى، أو حتى نصوص رحلية أخرى تتدثر بعناصر أدبية ظاهرة يصدر منها ومضات إبداع لا تتجاوز محاكاة المستوى الشكلي للفن بواسطة أدوات وصيغ تعتمد على البهرجة، وتهدف إلى أن تكتسب- مع ذلك أو بسبب من ذلك- جاذبيةً لدى العامة فيما هي خاوية وسطحية أكثر منها صنعة فنية أصيلة، ناهيك عن الاختلاف حول تحديد كنه الأدبية ومستوياتها التي يبنى عليها تحديد الأجناس العريقة كالشعر والرواية.

خطابُ الرحلةِ إذاً متنوعُ المضامين متعددُ الأساليب تتنازعه علوم شتى تتداخل معه وتتواشج، إذ له صلات بالجغرافيا والتاريخ وعلم الإنسان وعلم الأرض والاقتصاد والسياسة. لقد جعل هذا التنوع خطاب الرحلة جنساً أدبيًّا مراوغاً، إلا أن هذا التنوع يفضي إلى ميزة تجعل هذا الجنس أكثر غنىً وأرحب فضاءً. هكذا يتصل تجنيس خطاب الرحلة بمحددات شكلية وبنيوية، ونحن نجد أنّ هذا الخطاب انتهت إليه أشكالٌ شتّى (من سرد ووصف وتلفيظ سيميائي وشعر)، فهو جنس أدبي جامع وصاهر، قد يُذيب التخوم والحدود والفواصل. كما أنّ مسألة التجنيس الأدبي مرتهنة بالتلقّي؛ فالمتقبّل يمتلك كفاءة نظرية وإجرائية تسعفه على التجنيس الأدبي لكلّ أثر يتدبّره.

بذلكَ يُفضي الخِطابُ الرحليُّ إلى رحلات متعددة، فَـ"انتساب الرحلة إلى العلوم الإنسانية مسألة معقدة، لأن الرحلة هي رحلات بسبب تيماتها وأصناف رحّالاتها ... تحولت من المعيش المادي الحلمي الاستيهامي إلى نص تخيّلي أساسه في الحالتين التجربة الخارجية والباطنية. هذا التنوع يجعل الرحلة عصيّة عن أي تأطير أولي، لكن النظر إليها من زاوية أخرى، وتخصيصا الجانب البنيوي، يوضح أن العناصر المشتركة بين كل هذه الأنواع/الأشكال تظل واحدة في تعددها، تتعدد أسلوبيًّا، وتتخذ أوضاعاً شتى في السياقات الموضوعة لها، لهذا لا تخلو رحلة من سرد ووصف وتعليق من (الأنا) المحرك لكل هذه المشاهدات والمرويات والتخيّلات والأحلام، مما يجعل نعت الرحلة : تسمية مفتوحة على احتمالات التنويع. ورغم ذلك، فإن البحث عن تحديد دقيق لمفهوم الرحلة مأزق لا بد منه لطرح الإشكال بطريقة جذرية. فالتراكم لم يُفرز إلا تنوعا في الأشكال والتشكيل الفني. والرحلة نص مفتوح لا يمكنه أن يتسيّج في خانة محددة تجنّسه بصفة معينة تضيّق من تحرره واتساعه وانتشاره."[1]

في ضوء هذا كله وفي ضوء حقيقة أن خطاب الرحلة كان مادة أصيلة لبحوث ودراسات في علوم عدة نرى أن الجانب الأدبي ما زال لم يَنَلْ حَظَّهُ من البحث والدراسة، ولم يُجَلَّ بشكل يبرز علاقته الوطيدة بعالم الأدب الذي هو ألصق به وأليق من فنون أدبية مقلّدة تتوسل إلى الأدب بغطاء

(١) الرحلة في الأدب العربي، شعيب حليفي، ص ٤٣- ٤٤.

ظاهري عماده جمالية مزيفة قد تكون هابطةً فنيًّا لا تعدو كونها اجتراراً لنماذج سابقة أو حشداً لقشور وزركشات توهم بأدبية فارغة، تستدعي مفهوم الكيتش[1] إلى الأذهان بقوة.

يحتاجُ أدبُ الرحلة – كما قلنا - إلى كثير من الحفريات والدراسات الأكاديمية المتخصصة التطبيقية الجادة التي تخرج نفائس هذا الفن وتجليها، ورحم الله أبا الطيب حيث يقول:

إذا لَـمْ تُشاهِدْ غيرَ حُسْنِ شِيَاتِها وأعضائِها فالحُسْنُ عنك مُغَيَّبُ

إنّ ما أنجز يظل – وإن كثر – يسيرا كمّا وكيفا، ويظل في أغلب الأحيان متناولا لمحتوى الخطاب الرحلي بوصفه وثيقةً تُوَظَّفُ في مجالات شتى تهدد هويته الأصيلة وتنأى به عن مجال الأدب الإبداعي حتى الآن. هذا المجال الأخير هو - في رأينا - الذي يصنع أدبية الرحلة عبر تنويعات متعددة في البناء والسرد والوصف، وفي تشكيلات خطابية مختلفة، تتجاذبه أجناس أدبية شتى، وتتفاعل فيه الأنظمة اللغوية والأسلوبية والصوتية بحوارية النصوص والخطاب، بحيث تنتج خطاباً ماتعاً ومفيداً جديراً بنا أن نكشف هنا عن بعض كيفيات تحقق هذه المتعة وتلك الفائدة.

---

(١) يعود أصل كلمة "كيتش" Kitsch إلى اللغة الألمانية، حيث ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر بوصفها تعبيراً عن موجة فنية أنتجت وقتها فنوناً رديئة اعتمدت على التقليد والمبالغة.

بين السرد والوصف/التخييل والتجسيد

مقاربة نظرية

يَمْلِكُ الخِطابُ الرحليُّ من المقوّمات والخصائص ما يجعله منفتحاً على إمكانات متعددة في الكتابة والقراءة. فَـ"الرحلة تضعنا أمام تنويعات متعددة في البناء والسرد والوصف وفي التشكيلات الخطابية المختلفة ...، تجعل النص الرحلي نصًّا منفتحاً على إمكاناتٍ متعددةٍ في الكتابة والقراءة؛ لأنه متفرد في صياغته وقدرته على تنويع صور الخطاب والتلفظ. لكن أهم خاصية تسمه بالتميز هي الارتهان لبنية السفر كمرتكز سردي أساس لإعادة إنتاج تجربة الرحالة، وكذلك بهيمنة الوصف على المكونات السردية الأخرى. السرد في محكي السفر هو العنصر البنائي الأساس، لكن الوصف هو قاعدة انطلاقه." [1]ذلك أن الرحَّالة غالباً ما يتنقل في الأماكن عبر الزمن في بيئات وثقافات وعادات مغايرة – غالبا- لما ألفه يجعله مسُوقا إلى التشبث بكثير من الوقائع والأحداث والمشاهدات؛ لأنها ستكون غرائبية وشيّقة لذلك المتلقي الذي يهدف الرحَّالة إلى إدهاشه، ولإغناء هذا السرد وللبرهنة على المعاينة الدقيقة أثناء الرحلة يبرز دور الوصف الذي من خلاله يكتسي السرد واقعيته وأصالته.

إن النظرةَ النقديةَ الحديثةَ إلى شِعريةِ الفَضَاءِ (المكان الأدبي) تربطه بالزمان ربطاً رئيساً؛ فَـ"السرد: فعل زماني، فهو يتحقق في الزمن لأنه

(١) المتكلم واستراتيجية الخطاب في الرحلة، حسن لشكر ص ١٥٣.

يتحرك في مجراه، وبوساطته، لأنه يُقدم متصلاً به، الوصف: فعل مكاني، إنه توقيف لزمان السرد لمعانقة ثبات المكان، إن السرد والوصف صيغتان من صيغ الخطاب السردي، وبينهما تفاعل وجدل، فهما يتناوبان في مجرى الحكي، وهذا التناوب يجلّي التلازم الحاصل بينهما، فكل زمان يتحدّد في مكان، كما أن أي مكان لا يمكن إلا أن يؤطر في اللحظة الزمنية المعينة، لذلك لا عجب أن نجد الصيغتين معا في الخطاب تُقَدَّمان من خلال ذات واحدة هي ذات الراوي، فالراوي يرصد تطور الزمن بوساطة السرد، ويضعه في مكانه الذي يجري فيه بتحوله إلى الوصف. ويمكن بحسب هيمنة إحدى الصيغتين وطبيعتها في الخطاب السردي أن نحدد نوعية الخطاب، فالرواية تنهض على أساس سردي: فهو الذي بوساطته ينقلنا الراوي إلى عالم القصة، ويأتي الوصف حتى في الرواية الواقعية، ليتخذ أبعادا جمالية في الأساس ترهنه بما يقدمه لنا من إضاءات عن الشخصية أو مكان الحدث ..، إن السرد في الرواية يؤطر الوصف ويستوعبه، لذلك يغدو البعد الزمني فيها يحتل مكانة أساسية بقياسه بالمكان. أما الرحلة، فيمكن الذهاب إلى أنها خطاب وصفي لأنها تضع في الاعتبار الأول البعد المكاني في زمن معين."[1]

الرحلة إذاً خطابٌ، وَكُلُّ خطابٍ يُبنَى باللغة، وداخل كل خطاب هناك (أنا)، ويقتضي الخطابُ مرآةً تخاطبية، تجعل النص منعكساً على

(١) خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية، سعيد يقطين ص ١٦٢.

ذات القارئ ؛ فالرحالة طرف ناظر ومنظور إليه كذلك. والممعن النظر في الخطاب الرحلي تتبدى له أسئلة تحتم عليه التفكير بها ومطارحتها ؛ إذ تفضي به إلى مزيد من زوايا التناول، فيجد أن :

- خطاب الرحلة خطاب فردي وبالقدر نفسه خطاب جماعي.

- تفكيك قواميس الخطاب الرحلي وما لابسها من تسريد يوهم بالواقعية ليحمل القارئ على التصديق.

- ما لابس التسريد من وصف.

- ضبط قرائن الوصف ومداراته الكبرى، فمن قرائن الوصف وأساليبه يمكن رصد بعض منها : الحركة، واللون، والصوت، ورسم الشخصيات (البورتريه)، وتبئير الأماكن.

فوظيفةُ الوصف (عموماً) هي جَعْلُ العالم يحقق الامتلاء فلا يكون أجوف، وصفة الامتلاء هذه هي التي تبرز الرحلة وتكسبها المشروعية، ثم إن الوصف حامل للرؤية، رؤية الرحالة للعالم، والتي من أركانها : التعرف على الآخر، وخلق مسافة معه، والوقوع تحت نفوذه.

مهما يكن من أمر، فثمة إشكالية بين السرد والوصف تنبه إليها بعض المعاصرين. ذلك أنه قد "يبدو الفرق بين السرد والوصف من الناحية النظرية واضحاً، لأن ما ينشده الوصف باعتباره تصويراً لحالاتٍ غيرُ ما ينشده السردُ باعتباره تصويراً لتحولاتٍ لتلكَ الحالاتِ، لكن على المستوى العملي يصبح الأمرُ صعباً، ذلك أن الوصف قد يكون على شكل نصوص

كاملة بينما يختلفُ الأمرُ بالنسبة للسرد الذي يَصعُبُ عليه التخلي عن الوصف." [1]في ضوء هذا التنظير للسرد وعلاقته بالوصف، نجد في الخطاب الرحلي المنجز في هذه الرحلات التي نحن بصدد دراستها، أن الهوَّةَ تضيقُ وتقصر المسافةُ بين التنظير والتطبيق، ويعتمد نجاحنا في ذلك على مدى القدرة في إجلاء وجه العلاقة بين السرد والوصف وتلازمهما وطلب كل منهما للآخر. فالوصف يناقض السرد، والسرد يتعارض حتماً مع الوصف، الوصف يبطئ حركة المسار السردي على الرغم من لزوم الوصف للسرد أكثر من لزوم السرد للوصف. كذلك يحتوي الخطاب الرحلي صوراً من الحركات والأحداث، وهذه الصور هي التي تشكل السرد بمفهومه الدقيق، كما أنه يشتمل على صور من الأشياء والشخصيات، وهي التي تمثل ما يُطْلَقُ عليه الوصف، وذلك على الرغم من أن هذه الصور شديدة الامتزاج عمقاً ودقةً وتنوعاً على امتداد الخطاب الرحلي.[2] ذلك أن "بين التخييل الذي يولده السرد والتجسيد الذي يقدمه الوصف مسافة ترابط الزمان والمكان من جهة وتعارضهما بصدد (الهنا) و(الهناك) من جهة ثانية، ...، فالسرد في الرواية يجعلنا دائما أمام أحداث تجري قبل الآن، الشيء الذي يدفعنا بشكل خاص إلى ملاحقة تبدل الحدث وجريانه في الزمان حتى النهاية، ما قبل الآن، أما في حالة الرحلة

(١) (شعرية الوصف في أدب الرحلة- رحلة ابن بطوطة أنموذجا) فوزية قفصي ص ١٥٨.

(٢) –انظر : في نظرية الرواية – بحث في تقنيات السرد، عبد الملك مرتاض.

فإن الوصف وبحكم حركته الحركية، وإن كانت ذات عمق زمني، تدفعنا دائما إلى معاينة المكان ومواصلة الانتقال عبر الأمكنة التي يقف عندها الرحالة واصفا. وبصدد كل مكان تتشكل لدينا صورة مجسدة عن هذا المكان أو ذاك، بشكل يجعل كل مكان يختلف عن غيره. إن الفرق بين التخييل والتجسيد فرق بين السرد والوصف، بين التحول والثبات، وهو نفسه الفرق الذي يمكن أن نجده بصورة أخرى بين السمعي والبصري أو بين الخبر والعيان، وليس الخبر والعيان سوى التمثيل الأجلى للبعد الزماني الذي يتحقق من خلال السرد، والمكاني الذي يتجسد من خلال الوصف. (١)

في ضوء هذا الطرح، من الأهمية بمكان إيلاء خطاب الرحلة اهتماماً لا يقل عن الاهتمام بالرحلة بوصفها فعلاً، فبقدر ما تنطوي عليه أهمية الحركة المادية لذات الرحالة مكانيًّا وزمنيًّا، يَتَوَجَّبُ علينا أن نولي الخطابَ الذي أنجزته هذه الذات الإنسانية وفق ما تحسه وما واكب ذلك الإحساس من انفعالات ورؤى. فالخطاب الرحلي "ينجزه مرسل ينتج ملفوظاته وفق قواعد خاصة، وغايات محددة، تتعين في علاقتها بالمرسل إليه وبين الفعل والخطاب مسافة زمنية فالأول سابق والآخر لاحق، فالذات التي رأت أو ترى ليست هي الذات التي تتكلم، هذا هو التمييز الإجرائي الأول الذي نقوم به ونحن نفرّق بين الرحلة وخطابها، وذلك بهدف تحديد خصائص

(١) (خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية)سعيد يقطين ص ١٧٠.

خطاب الرحلة. إن المتكلم هنا والآن يسعى إلى ترهين الهنالك المشاهد والمعيش في زمان ومكان آخرين . فبالخطاب إذن، بما هو ترهين للرحلة نتعرف عليها. نستخلص مما تقدّم أن السردي يشتغل بموضوع الخطاب وليس الرحلة (فهي مادة)، وبهذا التمييز يختلف عمل السردي عن عمل غيره من الباحثين الذين اهتموا بالرحلة باعتبارها مادة، ولم يلتفتوا إلى الخطاب، فكانت حصيلة أعمالهم أن انشغلوا بعمل أي رحالة، ولم ينتبهوا إلى نوعية الخطاب الذي ينجزه، ولما كانت هذه الخطابات متعددة ومتنوعة ومختلفة تباينت تسمياتهم للنوع المتعلق بالرحلة، فهناك من يسميه الرحلة أو أدب الرحلات أو الأدب الجغرافي الخ. وهكذا ظل تحديد الخطاب ملتبساً، وتعيين نوعيته مبهماً، وتدقيق طبيعته مستعصياً و ... مستحيلاً. يأتي الخطاب ليقوم بترهين فعل الرحلة، له منطقه الخاص ومساره المتميّز، ... إن خطاب الرحلة هو عملية تلفيظ لفعل الرحلة وبعملية التلفيظ هاته يختلف خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات المجاورة التي تقوم على أساس فعل الرحلة ولكنها تستثمر جوانب منها، وتوظفها في خطاب مختلف."[1]

إضافة إلى هذا، يمكن القول مع بعض المعاصرين بصحة أن الملاحظة هي الخاصية الحتمية للرحلة، وهي خاصية يفرضها أفق انتظار القراء على سارد الرحلة، ومن ثم تفرض فكرة الوصف نفسها. لكن كل رحلة – في

(١) (خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية) سعيد يقطين ص ١٧٠ - ١٧١.

نهاية المطاف- تعد نتاجَ إعادة كتابة لرؤوس أقلام وصياغة لها، وقد ألَحَّتْ فكرة الكتابة هذه على بيير بيرتيوم وجعلته يقول، "تختزل كل رحلة في نهاية الأمر في كلمات." أما الطريقة التي تبنى بها هذه الكلمات فهي التي تمنح أدب الرحلة إيحاء بحدث أجنبي عن الحياة العادية والمنضبطة. هكذا تكون الرحلة إعادة نسخ، وإعادة كتابة بالكلمات أو بالصور أو بهما في الوقت نفسه.[1]

* * *

(١) انظر: (الرحلة وسؤال الكتابة)عبد النبي ذاكر ص ٢٣٤.

استهدف أدب الرحلة في جزء كبير منه تمثّل الشرق، فبحث عن أمكنة أخرى بعيدة عن المركز الحضاري الأوربي، وهي أمكنة يفوح منها الغريب والعجيب، وأداة التعرّف على الآخر وعلى شمال الجزيرة العربية هي اللغة. من هنا ستكون الرحلات موضوع الدراسة رحلات مترجمة إلى العربية لأوربيين زاروا المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين، وقد تميّزت هذه الرحلات بميزات عدّة من أهمّها المستوى الثقافي العالي لأصحاب هذه الرحلات، كذلك نظرة هؤلاء الرحالة إلى هذه المنطقة بإنسانها ومكانها بعين الغريب الذي قد تدهشه التفاصيل الصغيرة المهمة التي قد لا يتوقف عندها الرحالة المغربي أو الشامي الذي تجمعه بالإنسان والمكان أشياء كثيرة، في عاداته ودينه ولغته وطبيعة أرضه، ومن ثم لا يسلم من حجاب الألفة الذي يجعله لا يرى أشياءً تراها عين الأجنبي الزائر الغريب.

كذلك نشير هنا إلى أن هذه الرحلات متقاربة زمنيًّا وَتصفُ الأماكن نفسها بل والأشخاص أنفسهم أحياناً، ويحيل بعض أصحاب الرحلات إلى بعضهم الآخر وبخاصة في وصف الأماكن أو الملاحظات على الأشخاص البارزين في المنطقة التي يصفونها.

أيضاً تشكل هذه الرحلات نمطاً فريداً من الكتابة الرحلية لا تتأتى له أدبيته من الاهتمام بالغرائبي الذي يلحق البحث والتحري كثيرا منه بالأساطير وقصص الخيال، كما هو الحال في الرحلات الغابرة، كذلك

تختلف هذه الرحلات عن الرحلة الفهرس التي تتجلى في رحلات الحج إلى بلاد الحرمين، بل تتأتى من الوصف والسرد، كما أشرنا أعلاه.

أما كُتَّابُ هذه الرحلات فهم غربيون قدموا من بلاد متقدمة مدنيًّا بإنشاءاتها ومؤسساتها ووسائل مواصلاتها إلى بلاد ذات طبيعة بدوية بدائية شحيحة الثروات صعبة الظروف.

هكذا تهدف الدراسة الراهنة إلى تلمّس الروح الأدبية في كتابة هؤلاء الرحالة واستجلاء السرد والتخييل في هذه الكتابة دون التوسع المفرط في كُنْهِ هذه الأدبية، بل ستقتصر الدراسة على طريقة البناء اللغوي واستخدامه الفني المحدود؛ ليوصل شيئاً حِسِّيًّا مُشاهداً أو مَحكِيًّا إلى المتلقي أو لِيَصِفَ له عاداتٍ وممارساتٍ رَصَدَها.

أبرز هذه الرحلات تاريخيًّا رحلة كارلو غوارماني تاجر الخيول الإيطالي عام ١٨٦٤م، ورحلة تشارلز داوتي العالم الإنجليزي بين عامي ١٨٧٦-١٨٧٨م، ورحلة الليدي آن بلنت البريطانية عامي ١٨٧٨- ١٨٧٩م، ورحلة شارل هوبير المستكشف الفرنسي في الفترة ١٨٧٨- ١٨٨٢م، ورحلة يوليوس أويتنج المستشرق الألماني المهتم بالنقوش عام ١٨٨٣م، ورحلة آرتشيبولد فوردر عامي ١٩٠٠ - ١٩٠١م، ورحلة ألويز موزيل النمساوي الأصل التشيكي المولد أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة براغ، في الفترة ١٩٠٨- ١٩١٤م.

قد يكون هناك مَنْ يَتَحَفَّظُ على دراسة الخطاب الرحلي المترجم بحجة أنه انتقل إلى لغة غير اللغة التي كتبه بها مَنْ قامَ بالرحلة، ويُرَدُّ على ذلك بأن هذا الخطاب كُتِبَ بلغةٍ تَعتمدُ الوضوحَ والمباشرة؛ إذ تبتعدُ عن اللغة

المغرقة في الشعرية التي قد يصعب ترجمتها، أو قد يتأثر هذا الخطاب بها جَرَّاءَ الترجمة. كذلك تمت مقارنة أجزاء من الرحلات موضوع دراستنا بترجمات مختلفة فاتضح أن الترجمة متقاربة إلى حدٍّ كبير، فمثلاً رحلة الألماني يوليوس أويتنج نشرتها دارة الملك عبد العزيز مترجمة عام ١٩٩٩م عن نسخة قام بتحريرها ونشرها (كريستين نفلمن) عام ١٩٩٣م، وهي نسخة اعتمدت النقل الحرفي المختصر عن الأصل الكامل للرحلة. ثم نشرت دار الوراق اللندنية ترجمة عام ٢٠١٤م للنسخة الكاملة التي نُشِرَتْ بلغتها الأصلية الألمانية في جزأين: الأول عام ١٨٩٦م، والثاني عام ١٩١٤م. كذلك نشرت هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة ترجمة لرحلة لويز موزيل عام ٢٠١٠م، ونشرت دار الوراق ترجمة لها عام ٢٠١١م عن نسخة الكتاب باللغة الإنجليزية. أما رحلة آن بلنت فقد نشرت جزءا منها مترجما عن الإنجليزية دار اليمامة بالرياض عام ١٩٦٧م، ثم نشرتها دار المدى بدمشق عام ٢٠٠٥م وذلك بترجمة جزء أكبر مما ترجمته دار اليمامة، إلا أن الترجمة الكاملة للرحلة صدرت عن هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة عام ٢٠١٣م.

سأقتصر بدايةً على مقارنتين لنصين وردا في رحلتي كارلو غوارماني ولويز موزيل. فالرحالة الإيطالي كارلو جوارماني له رحلة بعنوان "نجد الشمالية من القدس إلى عنيزة في القصيم" سنة ١٨٦٤م - ١٢٨٠هـ ترجمها الدكتور أحمد إيبش ونشرت سنة ٢٠٠٩م وترجمها بطرس رزق الله ونشرت سنة ٢٠١٥م.

نجد جوارماني يصف ميدان معركة غب وقوعها بالقرب من حائل، ولنقارن بين الترجمتين لنرى الفارق. ففي ترجمة أحمد إيبش نقرأ:

"راحت بنات آوى والغربان والذئاب وطيور الرخم تمزق أشلاء جثث القتلى. وراحت خيولي ترتعد فرائصها من الخوف. أمضيت هزيعا من الليل أسهر عليها، وعندما بزغ الفجر تركتها في رعاية مرافقي، وابتعدت لجمع العشب، كانت تلك مهمة عسيرة، لأنني من أجل جزها لم يكن معي سوى خنجر كان مُثَلَّماً باستثناء رأسه المستدق أما ترك الخيول ترعى على هواها فهو أمر لا يمكن مجرد التفكير فيه، فهي لم تعتد بعد على أصواتنا، ولكان توجب علينا العدو خلفها على متن بعيرينا مليا لكي نمنعها من الإفلات والهرب. عندما تم لي جمع أربعة حزم من هذه الأعشاب، التي لاحظت أن الخيول تطلبها تحديدا وتحبها، رغبت بالصعود على متن صخرة يمكن من أعلاها الإشراف على السهل، ومن هنالك مناداة مرافقي ليجلب بعيرا لتحميل ما جمعته من زاد."[1]

في ترجمة بطرس رزق الله نقرأ النص كما يلي:

"كانت بنات آوى والغربان والنسور تلتهم الجثث. كانت خيولي ترتجف من الخوف، بقيت أراقبها وألاطفها، وتركتها تحت رعاية رفيقي عند الفجر بينما ذهبت أبحث عن العشب، وهي مهمة صعبة لأنه لم يكن معي سوى خنجري المثلم لقطعها، لم نستطع التفكير في ترك الخيول طليقة في

(١) نجد الشمالي، رحلة كارلو جوارماني ص٦٢.

المرعى ؛ لأنها لم تكن تعرف أصواتنا وكان من الواجب أن نلاحقها على الجمال. حالما تمكنت من جمع أربع حزمات من العشب الذي كنتُ أعلمُ أن الخيول تفضله، تسلقت صخرة ومن هناك دعوت رفيقي ليحضر جملا لحملها."[1]

أما الرحالة لويز موزيل فنجده في رحلته (في الصحراء العربية) حسب ترجمة عبد الإله الملاح يصف مشهداً من رحلته يحكي شيئاً من معاناته مع بعض رفاقه، يقول:

"ما إن طلع الفجر حتى أيقظني طارش الذي كان قد نصب نفسه بالقرب من رأسي، ومضى يسعل ويئن ويتأوه ويلقي ما لديه من طفيليات فوقي فيما يتلو القراءات في صلاة الفجر، وليت الأمر اقتصر على الصلاة وحسب! إذ كنت وجهته مع مزعل إلى تسريح الجمال للرعي ولكن طارش انشغل بالصلاة، بينما غاب مزعل لأداء ضرورة، فقمت عندئذ بتسريح الجمال بنفسي، أما تومان فقد أوقد نارا وصب ماء في إبريق القهوة وراح يطحن حبات القهوة المحمصة، ولما بدأ الإبريق يرسل البخار الحار ورائحة القهوة تنتشر، أنهى طارش صلاته وقضى مزعل حاجته، وبعد الفطور كان الكسل قد استولى على الرجلين ولم يلتفتا إلى تحميل المتاع، فاضطررت وتومان للقيام بكل الأشغال اللازمة."[2]

---

(١) نجد الشمالية ، كارلو جوارماني، ترجمة بطرس رزق الله ص١٢٢.

(٢) في الصحراء العربية رحلات ومغامرات في شمال جزيرة العرب، لويز موزيل، ترجمة عبد الإله الملاح ص١٧٨. يلاحظ اللغة المتعالية للرحالة تجاه بدو الصحراء، ويظهر أن موزيل هنا يرى أن طارشا يتشاغل بالصلاة.

أما في ترجمة رزق الله بطرس فنقرأ نص الترجمة هكذا :

"كان الفجر قد أشرق عندما أيقظني طارش الذي كان قريبا من رأسي يسعل ويتثاءب ويرمي كل قمله عليّ وهو يرتّل صلاة الصباح، ليت أنه كان يصلي وحسب، أمرته مع مزعل أن يطلق الإبل في المرعى لكن طارشا كان منهمكا في صلاته بينما غاب مزعل لقضاء حاجته، وفي تلك الأثناء أطلقت الإبل بنفسي، أوقد تومان نارا وصب الماء في إبريق القهوة وطحن القهوة المحمصة، وعندما بدأ الإبريق يطلق بخارا وانتشرت نكهة القهوة، أنهى طارش صلاته ومزعل حاجته، بعد الفطور كانا كسولين بشأن التحميل، فكان علي وتومان أن نقوم بكل العمل."(١)

يلاحظ الدارس للخطاب الرحلي الذي أُنجز مُلفِّظا هذه الرحلات تحصين المؤشرات التلفظية من كل ما يحيل إلى الوضعية غير اللغوية للخطاب، لأن هذه الإحالة تخل بتجانس الوصف وتماسكه، وتحول دون تشييد علم الدلالة على نحو مستقل عن اللغة الطبيعية المتداولة، لأن هذا الخطاب ينبغي أن يُعَدَّ بلغة الوصف التي تمكّن من مقارنة النماذج الموصوفة في مختلف اللغات. (٢)

أولى الصور التي تستحق الرصد والتبين صورة امرأة تحدّث عنها أكثر من رحالة، إذ نجد آن بلنت الرحالة الإنجليزية التي زارت حائل انطلاقا من

---

(١) في الصحراء العربية، ألويس موزيل، ترجمة : رزق الله بطرس ص ١٦٧.

(٢) – انظر : د. محمد الداهي، إشكالية التلفظ في النظرية السيميائية.
http://www.mohamed-dahi.net/site/news.php?action=view&id=٨٦

الشام ومرورا بالجوف عام ١٨٧٨م تذكر أن محمد بن رشيد أمير حائل يسألها عنها، ونجد ذات المرأة – بعد ثلاثين عاما – في أكثر من موضع عند الرحالة ألويز موزيل المعروف بـ (موسى الرويلي) الذي تجول في بادية الشمال سنة ١٩٠٨ م وما بعدها.

هذا الوصف الذي يجلّي شخصية هذه المرأة العربية من خلال سرد الأحداث التي مرت بها، ورصد التصرفات لهذه المرأة ذات الشخصية المؤثرة التي تجبر القارئ على تغيير الصورة النمطية للمرأة العربية البدوية، وتجعله يقف بإكبار أمام فاعليتها وقدرتها على إدارة حياتها؛ إذ أصبحت رقماً صعباً لا يمكن تجاوزه في طبقة تمثل رأس الهرم القبلي الاجتماعي في الجزيرة العربية.

يقول موزيل واصفاً تجاذبه لأطراف الحديث أثناء زيارة النوري بن شعلان شيخ الرولة له في خيمته: "وبعد حديث استغرق منّا بعض الوقت راح نوّاف يتباهى ويطنب في مآثر جده هزاع ومضى في حديثه وقال: "ولكن ابن أخيه سطام زاد عليه. فقد تزوّج بتركيّة من آل مهيد، بعد أن وقع في غرامها، وكان آل مهيد في خصومة شديدة مع الرولة، وقد صادف أن خرج سطام ذات مرة على رأس مقاتلينا لغزو الفدعان، وتمكن من رجالهم حتى ردهم إلى خيامهم، وهناك رأى لأول مرة تركية ذات البشرة البيضاء، وهي تستثير حمية أبناء قبيلتها عارية الصدر محلولة الشعر، ليبدي هؤلاء كل ما لديهم من مقاومة. وكان النصر حليف سطام ذلك اليوم، إذ رد الفدعان إلى ما وراء مضاربهم، ولكنه نهى جماعته، مع ذلك عن هدم بيوت الشعر أو النهب. واكتفى بأن قال، "أخبري أباك

والمحاربين يا تركية أن سطاماً يَرِدُ إليكم بيوتَكم، ثم غادر منازل العشيرة." ولقد أعجبت تركية بتلك الشهامة، حتى إنها أعرضت عن الزواج من أي شخص آخر سوى سطام، ثم أقنعت أباها بالقبول به زوجا لها. ولقد عرفتها وعرفت ولديها خالدا وممدوحا. وبعد هزاع تولى سطام الزعامة وصار الآمر على كل عشائر ضنا مسلم، واستمر أمره فيهم خمسا وعشرين سنة، وكان يعتمد على زوجته تركية اعتمادا كبيرا، ويقدرها ويحرص على بقائها دائما بقربه."[1]

يقول موزيل في موضع آخر، "وعائلة سطام – وتعرف عادة بعائلة تركية – أغنى من عائلة النوري، فهي تزيده من ناحية الجمال والخيل والعبيد."[2]

ثم يتحدث موزيل عن رحلة قام بها من الجوف شمالا مرورا بجبل عنازة لاستكشاف المنطقة ورسم خرائط لها، "وهنا وجدنا بلّور الملح الصافي وعلى مسافة غير بعيدة كان بيت شعر تركية، ولقد ظلت تركية أرملة الأمير سطام وأم ثلاثة أبناء متزوجين وأولادهم أكثرَ نساء الرولة نفوذا. فكانت كلمتها قانونا لا راد له. وكان الحديث يجري عن الضيوف ليس باعتبارهم نزلاء عند خالد ابن سطام البكر صاحب الخيمة، وإنما يقال إنهم نزول عند أمه تركية، بل إنه حتى شاعري الجوال مزعل أخو

(١) في الصحراء العربية، لويز موزيل، ترجمة الملاح ص ٣١
(٢) – في الصحراء العربية، لويز موزيل، ترجمة الملاح ص ١٠٦

زعيلة وضع قصيدة في مدح كرمها، ولقد أخبرني عدة أشخاص عن تركية أنها كانت تتلقى من زوجها سطام مئة مجيدي (٩٠ دولارا أمريكيا) شهريا كما كانت تفرض على ابنها دفع هذا المبلغ، ولم تكن المئة مجيدي لتكفي نفقاتها، ولما كان دخل خالد لا يضارع دخل والده صار يرجو والدته أن تكون أشد حرصا في مصروفها. فردت تركية: أنا لم أتعلم الاقتصاد ولن أتعلمه أبدا، ثم تحولت إلى خيمة جاريتها لتقيم عندها، فاضطر خالد وأبناؤها الآخرون لا بل وشيوخ العشيرة للمضي إليها وقضاء وقت طويل في رجائها حتى قبلت العودة. ولم يكن لخالد من بديل طبعا سوى أن يكفل دفع مبلغ المئة مجيدي شهريا. أما عن مصدر هذا المبلغ فأمر لا يعنيها في شيء. ويقال إنه ما كان ليمر يوم ولا تجد تركيّة فيه ضيوفا. وقد دأبت على أن تقدم الطعام في قسم الحريم إلى ما لا يقل عن خمس عشرة امرأة وهي تُعد الطعام من مؤن أولادها. وكانت فوق ذلك تدعو الرجال أيضا إلى مضافتها، ثم تدخل قسم الرجال وتتخذ مجلسها في المكان الأبرز وتحتكر لنفسها الحديث، وما كان لأحد ولا الأمير ذاته أن يجرؤ على مناقشتها في أمر."[1]

أما الليدي آن بلنت التي زارت حائل عام ١٨٧٨م فتصف محادثةً مع الأمير محمد بن رشيد وهو من أشهر أمراء أسرة آل رشيد في حائل، تقول: "فطوال فترة بقائه واصل الأمير استفهاماته، خصوصا عن تركية، إلى أن

(١) في الصحراء العربية، لويز موزيل، ترجمة الملاح، ص١٧٥.

فقدت صبري وسألته : ولكن لمَ تسألُ كلَّ هذه الأسئلة؟ لم تريد أن تسمع عن تركية؟ ما الذي يعنيك من كونها جميلة أو لطيفة؟ إنك لم ترها من قبل، ويحتمل ألا تراها أبدا . فأجاب: لا أنا لم أرها ولكني أودّ معرفةَ شيءٍ عنها وأن أسمع رأيك بها، ربما أرغب يوما في الزواج منها."[1]

لعلنا نلاحظ أن ما كتبه موزيل عن تركية هو نقل لرواية الشيخ النوري والأخبار المتداولة التي تصف المرأة وتصف شخصيتها وعاداتها كذلك ما شاهده هو بنفسه حيث صرّح بأنه عرفها وعرف ولديها.

ينقل لنا موزيل كذلك في رحلته رواية عن النوري كذلك، قصة أيضا لها علاقة بتركية، وتصور بدقة حال القبائل وما بينهم من حروب طاحنة في ذلك الوقت حيث تصبح المعركة حتمية بين سطام الشعلان زوج تركية وتركي بن مهيد أخيها. وهو بهذا السرد للقصة يوثق الواقعة من مصدر كان ممن شارك في الواقعة وأحد أبطالها، وهو بذلك ينقل قدرة الشيخ النوري على السرد اللغوي لحادثة وقعت منذ سنين عدة، كما يظهر ذلك قدرة هذا الرحالة الأجنبي على تلفيظ ذلك الخطاب الشفاهي باللغة العامية وتحويله بذلك التلفيظ إلى خطاب حكائي سردي، وموزيل بتلفيظ ما قام به النوري من سرد يقفنا على طريقة السرد عند البدوي ساكن الصحراء، تلك الطريقة التي تعتمد العفوية وتتخذ من الإبانة والفصاحة مرتكزا لها،

(١) حج إلى ربوع نجد، آن بلنت، ترجمة أيبش، ص ٢٥٥.

كما أن هذا التلفيظ من جهة أخرى يقفنا على طريقة موزيل منشئ الخطاب الرحلي في سرديته الخاصة.

يقول النوري مخاطبا موزيل: "من هذا المكان انطلقنا يا موسى في إغارتنا الأخيرة على تركي شيخ الفدعان، ويعد تركي من الأبطال وشهرته عمّت الصحراء كلها، سوى أنه ما انفك يستفز الرولة ولا ينقطع عن التحرش بنا، ويعرف تركي عموما باسم الحضّاب أي الحاضر أبدا، وقد اكتسب هذا اللقب لأنه لا يكاد يمر نصف الشهر دون أن يبلغنا نبأ عن إغارة جديدة شنها على تجمع الرولة، وكم من محارب كان يخشاه، والنساء يخفن أطفالهن بذكر اسمه، والرعاة يترددون في حمل القطعان على مغادرة تجمعات العشيرة. وفي النهاية ازدادت وطأته على الرولة حتى ما عادوا يطيقون عليه صبرا، فاتفق سطام رحمه الله والشيوخ الآخرون على القيام بغارة عليه، مع أنه كان من الناحية الشخصية يحب تركي ولا يريد قتله، لأنه فضلا عن كونه شقيق زوجته المفضلة كان أيضا ذا عقل رفيع وصادق، بيد أن الرولة هددوا بالإطاحة بسطام إن لم يقض على تركي قضاء مبرما ويريحهم منه إلى الأبد، فلم يَرَ بُدًّا من الانصياع، فخرج سطام لخوض معركة حاسمة ومعه ستمائة فارس وثمانمائة من الهجانة، وهو القائد، وكان نائبه في هذه الحملة خلف الأذن، فخرجنا وأمضينا وقتا طويلا ونحن لا ندري أين نجد تركي، ولكننا علمنا من جماعة صغيرة من الصلبة أنه يقيم في الحرّة، فاستخدم سطام صلبيا وأرسله سرًّا إلى تركي تحت جنح الظلام يحمل إليه هذه الرسالة: "يا تركي قد أرسلني إليك أخوك سطام، وقصدنا أن نشن غارة ونحن لا ندري أن خيامك تقع على

طريقنا. ولكن هذا ما حدث، ولا أملك أن أحول دون أهلي والهجوم عليك فتدبر الأمر بعقلك، فإن كنت ترى بوسعك أن تنزل بنا هزيمة فانظر وتمعن فنحن هنا، على أني أرى أن من الأجدر بك أن تهرب الليلة وتبعد عنا مسافة، فإن فعلت جئنا إلى حيث تقيم خيامك وتبيّنا أنك قد رحلت، فنتوقف هنيهة ثم نعود إلى أهلنا." فأثارت هذه الرسالة تركيًّا حتى إنه جرد سيفه مهددا وأمر الصلبي بالانصراف بهذه العبارات: "انصرف فوراً ولا تَتَوَانَ ولا تَنْسَ كلمة مما قلت لي، فإن ذكرت كلمة واحدة منها أمام قومي قتلتك، فهل ينتظرون مني أن أفر من الرولة الآن، وهم الذين طالما فروا أمامي."وفي اليوم التالي ترك تركي الديرة وحمل معه خيمته بعيدا إلى جنوب غرب الخيام حيث كثيرا ما كان رقيقه يطرقون تلك الناحية. ولقد أخبرنا من يتقصون الأثر أن العدو ينصب خيامه هناك والقهوة تدق في خيمة تركي. وفي تلك اللحظة هُرع كل فارس إلى فرسه وانتضى سلاحه وذخيرته، وأخذ ينتظر صدور الأمر، وقد حدد القادة الأماكن التي يمكن فيها للمحاربين إراحة النوق المنهكة أو الحبلى والانتظار، ووضعوا الهجانة بينهم وبين عسكر تركي، ثم قاموا بتوزيع مجموعات الفرسان إلى نصفين وضعوا إحداهما عند جناح الهجانة ليكونوا قوات الاحتياط وليكون النصف الآخر الأداة في الهجوم، وباشرنا بالهجوم فورا فشاهدنا الرعاة عن بعد وأرسلوا النذير وفي لحظة كان الفرسان على صهوات جيادهم. وكانت عشيرة العواجي (زعيم عشيرة ولد سليمان) تقيم خيامها إلى جانب تركي وبالتالي كان أمامنا عدة مئات الفرسان، ولقد ظلت رحى الحرب تدور، فارسا لفارس حتى غروب الشمس، واستهلك تركي في

هذه المعمعة ستة خيول، والعبيد يبدلونها حسب أوامره، وجُرحتُ أنا وكثيرون من الرولة ولكن القتال ظل مع ذلك يدور، لكن سطام كان ينفر من استدعاء الاحتياط، فكان يريد منهم إما حسم المعركة والانتصار وإما تغطية الانسحاب. وفي النهاية أصيبت فرس تركي، وفي سقوطها ضغطت على ساقه، وأوقعته على الأرض، ولم يكن بوسعه أن يتحرك بيسر، فالدرع الذي يرتديه كان يعيق حركته، كما أنه قد أصيب بطعنتين من رمح. وفي تلك اللحظة هب غراف عبد سطام لإنقاذ الزعيم الذي يعاني ويكابد، وانتزعه من تحت جواده، وجاء بالنساء ليحملنه إلى داخل الخيمة، وللتو احتل الخيمة أربعة من عبيد سطام لحراسته والذود عنه أمام الرولة الذين أشعلت المعركة حميتهم، ولما صاح المعتدون معلنين بابتهاج سقوط تركي أخذت الفدعان بالانسحاب، لولا أن اعترضهم الفرسان الاحتياط وأسرع الهجانة إلى الخيام لأخذ أصدقائهم الموتى والجرحى. وبلغ الخيمة خلف الأذن الذي يتولى قيادة هجوم الهجانة وكان سطام يعتني في ذلك الحين بتركي ذاته وأوشك خلف أن يوجه إليه ضربة الرحمة، ولكن سطام حال دون ذلك وهدده بالقتل فورا إن وضع إصبعا على صديقه، ثم نادى خلف رجاله من الهجانة للتعامل مع الأعداء بأنفسهم، وكانت استجابة الرولة الذين بلغ عددهم حوالي خمسمائة تطويق خيمة تركي، بينما خاطب خلف الأذن الأمير، بما يلي: "العرب يا سطام لا تقاتل هكذا، انظر إننا لن نسألك مرة أخرى، وقسما بالله إن لم تُخَلِّ الطريق فإنك سوف تتدحرج إلى قبرك، ألا ترى فوهات بنادقنا موجهة نحوك؟ وإذ نالت هذه الكلمات من سطام التفت إلى تركي بهذه العبارات: "سامحك

الله يا أخي وسامحني فأنت ترى كيف تطيعني عشيرتي الرولة، ويا خلف يا وغد بعني من تبغي ذبحه ولك مني ثمنه ذهباً. إليك عني يا أخي أما علمت أن النوري قد سقط اليوم وسقط كردي وناصر بن معجل وعدد لا يحصى سواهم. وأشار سطام لعبيده برأسه ثم انسحب من خيمة تركي وقد نال منه الحزن كل منال لسماع مصرع أخيه كردي ومصرعي أنا النوري، ولقد مات كردي ولكني ما زلت حيا ثم تعافيت تماما، وبعد أن غادر سطام اندفع الرولة الثائرون نحو تركي وعملوا فيه ضربا حتى الموت، واستولوا على كل ما في المخيم من قطعان ماشية وخيام، وكانت حصيلة تلك الواقعة سقوط ما يزيد على ثلاثين من الرولة وكان مقتل البطل زعيتل الذي استدعى أشد الحزن والندب، كذلك فقدنا خمسا وعشرين فرسا."[1]

من الشخصيات التي نالت نصيباً وافراً من وصف الرحالة جوهر حاكم الجوف من قبل ابن رشيد والذي حكم لمدة طويلة من ١٨٧٧ الى ١٩٠٠م. تصفه آن بلنت فتقول:

"إن جوهر عبد أسود تماماً ملامحه أفريقية قحة غليظة وهو طويل جدا مزهو بنفسه. كان قد لبس أفخر ملابسه لاستقبالنا، وهي عدد من الجبّات الحريرية المبهرجة الواحدة فوق الأخرى، وسروال سماوي وعباءة سوداء مذهّبة وكفية أرجوانية، كان قميصه مقسّى بالنشاء، فراح يقرقع كلما تحرك، وكان يحمل سيفا جميلا بمقبض ذهبي، ويبدو بمجمله كبربري مستبد."[2]

---

(١) حج إلى ربوع نجد، آن بلنت، ترجمة أيبش ص ٣١٢- ٣٢٤.
(٢) حج إلى ربوع نجد، آن بلنت، ترجمة أيبش ص١٨٠.

أما هوبر فوصفه بقوله :

"هو زنجي جميل، في العقد الخامس من العمر تقريبا، ينضح وجهه ذكاء، ولا تفارق الابتسامة شفتيه، وتصرفاته في غاية اللباقة."(١)

ويصفه أويتنج بقوله :

"دخلنا فوق عتبة غرفة مظلمة لا نوافذ فيها وحَيينا بعبارة (السلام عليكم) فجاء من الظلمة صوت مجلجل : عليكم السلام، عندما تقدمنا بضع خطوات إلى الأمام، جاء نحونا متصرف الشيوخ وهو زنجي اسمه جوهر، وبمنتهى اللطف مد لنا يده وقبّل – لم أعرف الآن إن كان قد قبّل خدودنا أم كوفياتنا – وخاطب كُلاً منا، علامة المشاركة المؤدبة، أربع أو خمس مرات متتالية وبصوت عال، بعبارة (كيف أنت) كلفنا جهدا كي نخفف شيئا فشيئا من شدة اندفاعه بعبارة (طيب الحمد لله). ... وأكد لنا جوهر مراراً وتكراراً أنه مسرور جدًّا بزيارتنا التي يعتبرها شرفاً عظيما له. لعلّ شفرات السيوف الرائعة من سولجن التي وضعناها أمام قدميه، وتكريمه بإهدائه ثلاثة جنيهات تركية، قد أثّرت على مزاجه وجعلته يبدو مرتاحا كل الارتياح، لكنه كان يبدو صادقا وغير متكلف في تصرفه، كانت ترتسم على وجهه علائم الوقار والرضا."(٢)

---

(١) – رحلة في الجزيرة العربية الوسطى، شارل هوبير ص ٢٨.

(٢) – رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم، ص ١٣٧.

ونجد الرحالة البارون إدوارد نولده الذي زار الجوف عام ١٨٩٢م، لا يزيد في وصف لقائه بجوهر عن كلمات قليلة إذ يقول:

"كان جوهر محفوفاً بأعيان رجاله بانتظاري واقفاً مباشرة خلف الباب الذي أغلق ثانية خلفي بأسرع وقت، وقبّل يدي بانفعال ظاهر، وقبّلته بعدئذ على الجبين، وأسرعت بمعانقته."(١)

ويصفه آرتشيبولد فوردر الإنجليزي الذي زار الجوف عام ١٩٠٠م بقوله" ... وهو زنجي قصير غليظ البنية، يرتدي ملابس مختلفة متعددة الألوان ويحمل بيده سوطا غليظا" (٢)

ويوثق فوردر حادثة وقعت إبان إقامته في الجوف، وهي من الأهمية بمكان إذ يُرجّح أن وفاة جوهر في ذلك العام كانت على إثرها، والحادثة هي انهيار أحد أبراج الحصن الأثري في الجوف جرّاء هبوب عاصفة ممطرة، نتج عنها سحق الغرفة التي كان يجلس بها جوهر حاكم الجوف، مما أدى إلى دفنه تحت كومة من الركام، وبعد ماتم سحبه من تحت الركام تبيّن أن إحدى ساقيه مكسورة وأنه تعرّض لرضوض وجروح بليغة. ويصف فوردر رؤيته الأخيرة لجوهر - ولعلها آخر رؤية لهذه الشخصية موثقة لرحالة غربي- فيقول: " توجّهت بعد ظهر ذلك اليوم لوداع جوهر، حيث إننا كنا عازمين على الرحيل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي."طُلب منّي الانتظار عند الباب ريثما يبلغونه رغبتي في لقائه. ثم سمح لي بالدخول

(١) – رحلة إلى وسط الجزيرة العربية، إدوارد نولده ص ٢٥.
(٢) – مغامرات بين العرب ، آرتشيبولد فوردر ، ص ٢٢٠.

لأرى الرجل العجوز ممددا في سريره على الأرض الطينية في زاوية من زوايا إحدى الغرف الكبيرة. كان العديد من الرجال جالسين معه. لم يسمح لي بالاقتراب منه ؛ وهكذا فقد قلت له من مدخل الباب: "أنا راحل غدا وقد جئت لأقول لك وداعا وأشكرك على لطفك وكرمك ؛ ليمنّ الله عليك بالسلام والطمأنينة والعافية التامة". ثم أمسك أحدهم بيدي ورافقني إلى خارج الحصن، وكان ذلك آخر عهد لي بجوهر، أبو عنبر، الرجل الأكثر مهابة واحتراما في بلدة وإقليم الجوف. ولم أسمع عنه خبرا قط منذ ذلك اليوم حتى الآن".[1]

من خلال رصد وصف الرحالة لشخصية جوهر يلاحظ اختلاف الزوايا التي تناولوا من خلالها وصف هذه الشخصية، وتعدد تيمات الوصف التي استخدموها، كذلك يتبدى استبطان هؤلاء الرحالة لموقف معين تجاه إنسان الجزيرة العربية عامة وجوهر خاصة ؛ مما يؤكد استحالة أن يتخلص كاتب الخطاب الرحلي من ذاتية تلازمه وتصر على تدخلها ووجودها أثناء رصد الأشخاص والأشياء.

ولتأكيد هذا الاختلاف وفرض ذاتية السارد نفسها على عملية السرد والوصف، نقف مع هذا البارون اللندني الارستقراطي حيث يعكس مركزه ومستواه نظرته للأشياء فهو مهتم بنفسه أكثر من أي شيء آخر، وقراءة خطابه الرحلي ومقارنته بخطابات موازية له يبرهن على مدى تأثير

(١) – مغامرات بين العرب ، آرتشيبولد فوردر ، ص ٢٣٩.

التكوين الثقافي والتنشئة الاجتماعية لمنشئ الخطاب الرحلي على صوغ هذا الخطاب وتلفيظه. فالبارون بالإضافة لما أوردناه سابقا يصف تصرفه بعد أن دخل مجلس جوهر فيقول:

"فقد امتشقت السيف، وأعطيت إشارة بالتوقف، وجلست أمام النار الكبيرة المتقدة في القاعة، بعد ذلك قدمت لي على الفور القهوة."[1]

إن هذا الاحتفاء بالذات عند هذا البارون ماثل في أكثر من موضع من رحلته، إذ نجده يتحدث عن الهبوط المفاجئ في ميزان الحرارة في صحراء النفود والذي هبط بعد غروب الشمس في غرة شهر فبراير وخلال ربع ساعة ثلاث وثلاثون درجة مئوية، إلا أن هذه الملاحظة لم تسلم من شنشنة أخرجت السرد والوصف عن المعاين والمحسوس، حيث ذكر أن مثل هذا الهبوط الفظيع لم يلاحظه لا في المكسيك ولا الهملايا ولا القوقاز ولا في جبال أرمينية، إذ في ذلك تلميح إلى مكانة البارون وقدراته وتجاربه السابقة.[2]

كذلك نجد هذا الاحتفاء بالأنا ماثلاً في رحلة البارون عند زيارته لمدينة حائل، فبينما يشغل الرحالة بالوصف الدقيق لمدينة حائل من حيث الإنسان والمكان، يركّز البارون على إعجاب الناس بحصانه (مانك)؛ إذ يقول:

---

(١) رحلة إلى وسط الجزيرة العربية، إدوارد نولده ص ٢٥.

(٢) رحلة إلى وسط الجزيرة العربية، إدوارد نولده ص ٣٠.

"استهوى جمال مانك جميع القلوب إلى درجة أنه سادت صفوف الحشد عبارات الاستحسان."[1]

في المقابل عندما نقرأ المنجز الرحلي للرحالة الألماني يوليوس أويتنج، الذي زار الشمال بدءاً من قرية كاف التي مكث بها أياماً ثم توجه إلى الجوف ومنها إلى حائل فتيماء فتبوك فالحجر والعلا وأخيرا الوجه على ساحل البحر الأحمر حيث سافر إلى مصر، نقع على التقاطاتٍ تجعل من خطاب رحلته منجزا يؤهله لأن يدرس باحتفاء.

من التقاطاته الجميلة وصف بعض عادات الناس في كاف:

"ومما كان يزعجني عادة الناس أن يصرخوا بصوت عال عندما كنت أطلب منهم تكرار جملة لم أفهمها، أو لم أفهمها بشكل صحيح، ظنا منهم أن التكرار بصوت عال يجعلني أفهم أكثر."[2] بطبيعة الحال، هذا رد فعل طبيعي لدى البشر ذوي الثقافة المشتركة، ومن ثم فإنهم يعدون الرحالة كأنه واحد منهم.

يقول أويتنج أيضاً واصفاً إحدى الشخصيات في كاف:

"دعينا إلى الفطور عند رجل اسمه منصور يسكن في النصف الشرقي من القرية. وهو ثاني أغنى رجل في كاف بعد الشيخ، لديه حصان، ويتباهى جدا بعباءة حمراء كالنار لا بد أنه غنمها في إحدى الغزوات في

(١) رحلة إلى وسط الجزيرة العربية، إدوارد نولده ص ٤٦.

(٢) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص٩٨.

مكان ما. ومما يدل على أنه قد شارك في العديد من المشاجرات آثار الجروح الظاهرة على وجهه وعدد من أسنانه المكسرة."[1]

أما أويتنج فيصف رقصة في الجوف بهذه الطريقة:

"عندما كانت الشمس تميل إلى الغروب شاهدنا رقصة متميزة لم تتح لي الفرصة لمشاهدتها مرة ثانية في كامل الرحلة. في السهل في ساحة واسعة حيث تشكل أسوار الحدائق زاوية منفرجة، كانت تقدم رقصة غريبة عجيبة. على مسافة عشرين خطوة من بعضهما كان هناك صفان يقفان في مواجهة بعضهما البعض، على الجهة الأولى حوالي اثنتي عشرة فتاة وعلى الجهة الأخرى عدد مماثل من الشباب. وفي الوسط بين الصفين كانت ترقص فتاتان مكشوفتا الرأس وشعرهما مُسَرَّحٌ نحو الخلف وهما تنظران بأدب إلى الأرض. وبخطوات قصيرة راقصة وذراعين مفتوحتين كانتا تتقاربان وتتباعدان. وفجأة أدارت كل منهما ظهرها للأخرى وألقت برأسها بإيقاع إلى الخلف بحيث إن الشعر الطويل لكل منهما صار يتأرجح قبالة شعر الأخرى. في هذا الوقت كان صف البنات الصديقات يصفقن لهما بإعجاب بحيث كن يضعن أيديهن بصورة عمودية أمام صدورهن ويضربن بإيقاع يدا على الأخرى، بينما كان الشباب المقابلون لهن يقفون متراصين كتفا على كتف يغرزون سيوفهم أمامهم ويحركون أجسامهم جيئة وذهابا وهم يغنون

(١) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص ٧٨.

لحناً متسارعاً. لم أفهم وأنا عابر كلمات القصيدة. قيل لي إن اسم هذه الرقصة هو لعبة الدحّة."[1]

من العادات التي وصفها كذلك أويتنج في قرية موقق (قرب حائل) قوله:

"كانت إبلنا باركة في الفناء وقد لطخت الأعناق والأفخاذ بالدم من الجانب الأيمن، وهذا يعني أنه قد ذبحت ذبيحة تكريما للضيوف."[2]

في موضع آخر يتحدث أويتنج عن حالة مماثلة عندما حلوا ضيوفا على بدو من بني عطية في طريقهم من تيماء إلى تبوك فيقول:

"ونظراً لأن جمالنا كانت قد لطّخت بخط عريض من الدم على طول الجانب الأيمن من العنق وبخط آخر من الخلف للتذكير بأن المضيف السابق قد ذبح لنا، فإن هؤلاء المساكين اعتقدوا أيضا أن عليهم أن يذبحوا من أجلنا، وكان استعمال الخط الطويل متداولا لدى عرب الغرب يظهر في أنماط متباينة ويتخذ في الوقت ذاته رمزا لكل قبيلة من القبائل."[3]

---

(١) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص١٤٨. لا ينطبق وصف الدحّة المعروفة عند أهل الشمال على ما وصفه أويتنج، وقد سألت عنها العارفين برقصة الدحّة في المنطقة، فأنكروا ذلك وقالوا لعلها رقصة خاصة في الجوف.(الباحث)

(٢) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص٣٦١.

(٣) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص٤١٢.

من المظاهر الطبيعية التي توقف عندها الرحالة التشكيلات الرملية في صحراء النفود الفاصلة بين الجوف وحائل ؛ إذ تقول بلنت واصفة لها :

"إن أكثر ما يثير الانتباه في النفود هي الوطاءات المتناثرة هنا وهناك ، التي تشبه حوافر الفرس ، والتي بالرغم من تفاوت حجمها من أكر إلى مئتي أكر تتشابه تماما بشكلها واتجاهها ، ويمكننا تشبيهها بأثر قدم حصان غير منتض بحدوة أي أن مقدمة الحافر مقطوعة بشكل عمودي حاد بينما تستدق حافة الحافر تدريجيا حتى العقب ، أما النسر (وهي طبقة قرنية رقيقة بباطن حافر الفرس) فتمثله الأرض الوعرة في الوسط ، المكونة من مجاري المياه المتلاقية."[1]

أما أويتنج فيصفها بقوله :

"وإذا ما صعد المرء إلى (فلج) ما ، أي إلى ظهر أحد الكثبان الرملية ، يولد العلم الرملي الانطباع وكأن قطيعا من الخيول العملاقة قد عبرته من جهة الشرق إلى جهة الغرب وتركت فيه آثار دوسها ، آثار الحوافر المسماة قعر الجمع قعور هي الطابع المميز لصحراء النفود ، وهي عبارة عن ثقوب كبيرة يبلغ عمقها من ٣٠ الى خمسين مترا أو أكثر ذات جدران حادة تنحدر بزاوية ٥٠ الى ٦٠ درجة وتظهر على جهتها الغربية في القاع صخور عادية ، وتصعد ببطء في محورها الطولاني نحو الشرق. وكلما تقدم المرء في

(١) حج إلى ربوع نجد ، آن بلنت ، ترجمة أيبش ص١٩١.

النفود نحو الجنوب تصبح القعور أكبر." [1] فتشبيه بلنت لقعور النفود بآثار قدم الحصان هو تخييل لمحاكاة ذلك الأثر الذي يستوقف جلّ من عبروا النفود.

يجمع الرحالة في خطابه الذي سعي لتلفيظ رحلته في النفود بين السرد والوصف، فهو في حين يسرد مراحل لحظته يحرص على وصف الإنسان والحيوان والمتاع المرافقين له إلى جانب وصف المظاهر الجغرافية بلغة قادرة على التخييل والتوثيق.

كما نجد أويتنج أيضاً يصف تشكيلات الأرض ونباتها فيقول:

"في الأرض الرملية التي تتناثر فيها عروق الكوارتز ينمو فيما عدا الكلح العشب الدائم الخضرة، نبات آخر يدعى رِبْلة يأكله البدو أيضا، وكان هناك علاوة على ذلك كمية من الكمأة، وتكثر هذه الأكلة الشهية في الصحراء، مع بداية الربيع تدفع برأسها الرمل نحو الأعلى، وبذلك تكشف عن مكان وجودها، كانت عين نومان المدرّبة على كشف الكمأة تلمحها من بعيد، وبعد حين على وجه السرعة مؤونة ضخمة منها وأما لون درنها من الخارج فهو بني فاتح مائل إلى الحمرة، وهي متشققة مثل القرفة المدقوقة، وأما كتلتها فهي بيضاء وذات طعم لذيذ."[2]

---

(١) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص ١٥٣.

(٢) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص٣٦٣

في الطريق ذاته عند العودة من تبوك يصف أويتنج مستنقعا مائيا جفت مياهه، يقول: "فالبحيرة التي كانت قبل ١٢ يوما حوالي مائة خطوة مربعة وعمق نصف متر جفت بالكامل وتشققت القشرة الطينية على الأرضية والتفّت حول نفسها مشكّلة قطعا متناثرة مثل نعول أحذية عتيقة في كل مكان." (١)

هذا الوصف لمنظر مآل المستنقع المائي الذي رصده أويتنج واجتهد في إيصال صورته إلى القارئ من خلال محاكاته وتشبيهه بشيء مألوف لدى عامة الناس في كل مكان وهو الحذاء العتيق المتكور على نفسه. يؤكد ما ذُكر في الجانب النظري من هذا البحث، وهو تميّز خطاب الرحلة بأدبية أصيلة غير متكلّفة.

يماثل صنيع أويتنج في محاولته نقل الصورة باعتماده على التشبيه ما صنعه هوبير حين يصف شظايا من الحجر الرملي بأنها:

"تبدو وكأنها متفحّمة وتشبه في شكلها القرميد المكسّر."(٢) وفي قرية الطرفية في القصيم التي غار ماؤها فهجرها سكانها، ومات نخيلها يقف هوبير نفسه متأثراً معتمداً التشبيه لنقل المشهد، فيقول:

"فإثر اختفاء الماء من الآبار قبل أربع سنوات تفرّق معظم السكان في بلدات أخرى، وماتت كل أشجار النخيل، وظلت جذوعها المجردة من

---

(١) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص ٤٢٩

(٢) رحلة في الجزيرة العربية الوسطى، شارل هوبير، ص٤٨

الـورق منتـصبة في الهـواء علـى نحـو محـزن، وكأنهـا غابـة مـن عـصي المكانس." [1]أما داوتي فيعبر عن شح الأمطار في الجزيرة العربية باستعارة لطيفة، إذ يصف سماء الجزيرة أنها نادرة "تبكي بكاء المنافقين."[2]

هناك من صيغ الخطاب ما يعتمد الرحالة فيه على لغة الوصف الدقيقة إذ ليس ثمة تشبيه ولا استعارة، مثاله وصف أويتنج منظرا في الصحراء في الطريق إلى تبوك، والتركيز على وصف شخص لفت انتباهه في ذلك المنظر، إذ يقول:

"ظهرت للعيان من بعيد بعض النقاط السوداء إنهم عرب مع بغال؟ وغنم، وهم مزائدة من مساكين بني عطية بينهم رجل أعمى في وجهه مرض مريع سبب له تشويها خبيثا، لكنه رغم ذلك كان يدخن نشوانا غليونا من فمه المتآكل."[3] فالربط هنا بين المظهر المادي للرجل وحالته النفسية التي تشي بها تصرفاته وتظهر مدى تصالحه مع حالة وجهه المشوّه، حيث الاستمتاع بالتدخين.

في موضع آخر يورد أويتنج ملاحظة تبرهن على قدرته على الوصف الدقيق وتلفيظ تفاصيل المشهد وإن لم تكن ذات أهمية كبيرة، يقول:

"وكان أحد البدو يدخن من رأس غليون خشبي لم يتبق منه سوى النصف." [4]

---

(١) –رحلة في الجزيرة العربية الوسطى، شارل هوبير، ص ٧٧

(٢) –رحلات داوتي في الجزيرة العربية، تشارلز داوتي ص ١٢٧

(٣) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص٣١٢.

(٤) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص٣١٢.

وفي سياق الحديث عن الغلاوين ودقة الالتقاط يصف داوتي حالة الإدمان على التبغ الذي وصل إليها من فقدوه، يقول:

"رأيتهم يقطعون سيقان الغليونات قطعا صغيرة من أجل رطوبة التبغ القليلة المتبقية فيها، وهم يضعون جمرة على هذا الخشب المنقوع يشربونه بالدخان بسلوان أخير."(١)

وفي سياق وصف الأشخاص نجد موزيل كذلك يصف شخصا بقوله:

"كان يدعى طارش بن ملفي وينتمي إلى المحينات. لكنه لم يَرُقْ لي فقد كان أعرج، وعينه اليسرى عمياء، قواطعه العليا بارزة من فمه. وهذه صفات لا تبشر عند البدو بخير، ولكنه من المحينات أي من الأسر المقدمة لدى الدهامشة، وبالتالي لم يكن لي مجال للاختيار."(٢)

فموزيل هنا يعبّر عن انطباعه الذي نتج عن قراءة سيميائية جسدية لطارش هذا، فالعلامات البارزة على جسد طارش ودلالاتها لم تَرُقْ له، ثم أتبع تعداده لعاهات الرجل ذِكْرَهُ أن البدو يشاركونه هذا الانطباع، فهذه العلامات لا تبشر بخير عند البدو كذلك، ويعد ذلك بمثابة تأكيد لصحة انطباعه.

يصف موزيل أيضاً سعود بن ملحم شيخ مشائخ الحسنة من عنزة فيقول:

---

(١) رحلات داوتي في الجزيرة العربية، تشارلز داوتي ص١٠١.
(٢) في الصحراء العربية، لويز موزيل، ترجمة الملاح ص ١٧٠.

"وكان سعود بن ملحم يومئذٍ في نحو الخامسة والستين من عمره. وأقرب إلى القصر وبدين، ويتسم بشفة سفلى كبيرة مستديرة وعينين صغيرتين تكادان لا تثبتان فتتحولان بالنظر من مكان إلى آخر، وكان أشبه بابن بلد هادئ مستقر منه بابن صحراء من الرحّل، وكان يمتلك بيتا في حمص وقريتين."[1]

يحتاج هذا الرسم بالكلمات لملامح الشيخ المادية يحتاج إلى قدرة فائقة على الوصف باستخدام خاص للغة يؤدي إلى استحضار المتلقي من مخيلته صفات تتراصُّ وتتكامل لتكوّن صورة تكون الأقرب لصورة هذا الشخص. فهذا التلفيظ من لدن موزيل يضعنا أمام ترهين للرحلة بوصف لغوي دقيق للأشياء يجعلنا أمام خطاب مغاير لخطاب لا يحفل بمثل لغة الوصف هذه.

لقد انتقد موزيل مرافقيه اللذين استأجرهما كدليلين ومساعدين له في رحلة استكشافية لوادي عرعر وما حوله، وقد كان هذا الانتقاد بطريقة لَمَّاحة تؤكد ما نذهب إليه من شأن تجاوز خطاب الرحلة الخطاب العادي، وما يوافق كلام أصحاب نظرية التلقي حيث تُترك فجوات تُملأ خلال عملية القراءة.[2] يقول موزيل في نص اقتبسناه آنفاً في موضع آخر:

"ما إن طلع الفجر حتى أيقظني طارش الذي كان قد نصب نفسه بالقرب من رأسي، ومضى يسعل ويئن ويتأوّه ويلقي كل ما لديه من

(١) في الصحراء العربية، لويز موزيل، ترجمة الملاح ص ٢٨٦.

(٢) انظر: أ.د حسن البنا عز الدين، قراءة الآخر، قراءة الأنا نظرية التلقي وتطبيقاتها في النقد الأدبي العربي المعاصر.

طفيليات فوقي فيما يتلو القراءات في صلاة الفجر، وليت الأمر اقتصر على الصلاة وحسب! إذ كنت قد وجهته مع مزعل إلى تسريح الجمال للرعي ولكن طارش انشغل بالصلاة، بينما غاب مزعل لأداء ضرورة. فقمت عندئذ بتسريح الجمال بنفسي، أما تومان فقد أوقد نارا وصبّ ماء في إبريق القهوة وراح يطحن حبات القهوة المحمّصة، ولَمَّا بدأ الإبريق يرسل البخار الحار ورائحة القهوة تنتشر، أنهى طارش صلاته وقضى مزعل حاجته. وبعد تناول الفطور كان الكسل قد استولى على الرجلين ولم يلتفتا إلى تحميل المتاع، فاضطررت أنا وتومان للقيام بكل الأشغال اللازمة."[1]

إن البناء اللغوي الذي اعتمده موزيل في هذا النص ينجلي عن قدرة فريدة؛ إذ يعبّر عن صلاة طارش بقوله: "ولكن طارش انشغل بالصلاة"، ولم يقل "يصلي"؛ لأنه يعلم أن صلاة الفجر لا تأخذ كل هذا الوقت، وأن هذا التشاغل جاء بعد أن طلب موزيل منه أداء عمل، كذلك عبّر عن تشاغل مزعل المماثل لتشاغل طارش بقوله: "بينما غاب مزعل لقضاء حاجة"؛ إذ جعل هذه الحاجة نكرة لجهله بها أو لعله من المسكوت عنه؛ لأنه مما يستقبح كالذهاب إلى الخلاء. ثم يأتي بعد ذلك تعبيره عن إنهاء هذين الشغلين بقوله: "أنهى طارش صلاته"، ولم يقل انتهت، و"قضى مزعل حاجته"، ولم يقل "انتهى من قضاء حاجته".

(١) في الصحراء العربية، ألويز موزيل، ترجمة الملاح ص ١٧٨.

كان هذان الرفيقان مادة خصبة لموزيل. وبتلفيظه لهذه التصرفات والتعبيرات المعبرة يتبدّى لنا معنى تحوّل الرحلة من فعل إلى خطاب، يقول موزيل:

"أخذ مزعل، وقد سرّه أن يجدنا نعود إلى معسكر النوري، بغناء بعض القصائد القصيرة من وضعه، كذلك أَخْذُ طارش بالغناء مثله، معللا النفس بالحصول على أجر أو حتى مكافأة قريبة، ولكن مزعلا لم تَطُبْ له هذه البادرة، فقد كان يريد أن نصغي إليه وحده ودون سواه. وكان مزعل شاعرا حقا، أما طارش فلم يكن شأنه سوى ترديد أغاني الآخرين وقصائدهم لا يضيف جديدا، وعليه أخذ مزعل يعنف طارشا ويهزأ به: "يا طارش ما من منشد يبلغ شأوك، ولا هناك مثلك وسيم بين الدهامشة كلهم. وكل زينة من الزينات لا بد أن تفرح بك، صوتك يذكّرني بقرقعة عجلات النواعير على الفرات وبوجهك الظريف يلزم أن كل عجوز تساقطت أسنانها أن ترى فيك نفسها'."[1]

فموزيل يتوسّل اللغة ليلفّظ ما يرصده من تصرفات رفيقيه التي نتجت عن هواجس وأحاسيس كانت بمثابة دوافع داخلية قوامها الطمع والرغبة. كذلك ردّة فعل مزعل تجاه مشاركة طارش له بالغناء جاءت بأن عدّ طارش منافسا قويّا له، وقد لا يكون لسوء صوته أو عبثه بالشعر كما يظهر، فمزعل يرى أنه بشاعريته وقدرته على الغناء ومبادرته بذلك أحق بأن ينال

(١) في الصحراء العربية، ألويز موزيل، ترجمة الملاح ص ١٩٩.

عطاء موزيل، ويؤكد ذلك سخرية مزعل من طارش؛ إذ لم يكتف بالنيل من صوته وشاعريته، لكنه تعدّى ذلك إلى السخرية من وجه طارش ذي الملامح المنفرة، ومعلوم أن هذه الملامح لا علاقة لها بالشاعرية والقدرة على الغناء.

من الالتقاطات التي رصدها أويتنج وتنبئ عن ثقافة ابن الصحراء حيث تعد مهارة حلب الناقة ضرورية، يورد هذين الحوارين القصيرين:

"أثناء الحديث مساء جلس مع الآخرين راعٍ قرب النار وسألني ببالغ الجديّة: تعرف تحلب؟ وعندما أجبت على السؤال بالنفي قال: إذا ما الذي تعرفه؟!، وعندما سألت ولدا من البيت ما هو اسم كلبه؟ فأجاب: ما أدري والله."(١)

من الالتقاطات الفكاهية ما يحكيه موزيل عن وصفه دواء لزوجة النوري شيخ الرولة المريضة قوله:

"ولما سألت إن كانت قد تناولت العقار الذي بعثته إليها أخبرتني والدتها أن أخوات الصبية قد تناولنه عوضا عنها، بعد أن تذوقن طعمه وطاب لهن فشربن الدواء قبل أن تتناول شيئا منه."(٢)

مثل هذه الالتقاطة البسيطة العابرة ترصد وترهّن تصرّف عرب الصحراء حيال شيء مغاير لم يألفوه قبلا. وقد وقف الرحالة أويتنج عند بئر هدّاج بتيماء، يصفه بقوله:

---

(١) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص ٣٧٥.
(٢) في الصحراء العربية، ألويز موزيل، ترجمة الملاح ص ١٥٦.

"وأول الأهداف التي قصدناها بئر هداج البديع، إنها عين معروفة في عموم الجزيرة العربية والشام يشيد بها العديد من القصائد، في وسط ساحة يخترقها نحو ٨٠ مجرى مائيا مسورا توجد في أرض صخرية طبيعية مع إكمالات مشيدة بحجارة، فوهة مدورة قطرها حوالي ٢٠م، وعلى عمق ١٥م يشاهد المرء سطح ماء يُغذّى من فروع متدفقة."

يذكر أويتنج أن القائمين على استخراج الماء سألوه فيما إذا كانت توجد مثل هذه العين في بلاده وفيما إذا كانت لدينا بساتين وما يشابه ذلك. فكان ردّه:

"أنه يوجد في ألمانيا ٤٠٠٠ أو ما يزيد من السواقي والأنهار، التي يجري ماؤها طيلة العام في البحر دون أن يُشرب، وأن البلاد برمتها عبارة عن بستان وأرض مزروعة، صحيح أنه لا يوجد فيها نخيل، ولكن غابات وأشجار مثمرة تنبت ما بينها الحبوب وينبت العشب في كل الأرجاء، ولا يسمح للمرء أن يرتحل كيفما شاء لأن كل الأراضي محددة، أو أنها ذات سياجات وجدران، عندها قال أحد فرسان المغازي العتيقين في تيماء – لا يمكنني القول إنه مغرور – إذا كان كل ما تذكره عن بلادك صحيحا فلماذا هجرت تلك البلاد أصلا؟! احم وعلى كل حال حيث لا يوجد تمر ولا توجد جمال ولا بدو وحيث لا يمكن للمرء أن يرتحل حيث شاء فإن هذه البلاد ليست جديرة بالتطلّع إليها" وأخذ الآخرون بالنظر إليه وإلى أنفسهم وإليّ، لقد خرجت على نحو سليم ولكن بصورة متبجح أو محتال لحق الضرر بمكانته في تيماء."[1]

(١) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص ٣٩٤.

اختتم أويتنج هذه المحادثة بعبارات قليلة كانت بمثابة تلفيظ يكثف القراءة السيميائية لنبرة صوت المبجّح لأويتنج، حيث كان تعليقه على اعتداد أويتنج ببلاده يحمل عدم التصديق لهذا الكلام، أو الثأر لكرامة بئر هدّاج التي نيل منها بحديث أويتنج عن الأنهار الكثيرة والزروع، كذلك رصد نظرات الحاضرين وقرأها وذلك بقوله، "وأخذ الآخرون بالنظر إليه وإلى أنفسهم وإليّ." أيضا أويتنج نظر إليهم وإليه وإلى نفسه فوجد نظرات تشي بشك وتكذيب، ومكانة تضررت إذ تأطّرت بالتبجّح والاحتيال.

نلاحظ أن أويتنج عندما لفّظ المشهد الحواري عند البئر حرص على نقل التداول على السرد والتناوب على الحكي، كما حرص على تلفيظ حواشي هذا الحوار اللغوي من حيث النظرات وتعبيرات الوجوه.

يعيدنا هذا الحرص من لدن أويتنج على تلفيظ الحوار إلى مشهد حواري في قرية (كاف) في بداية رحلة أويتنج حيث يذكر أنه جاءت لزيارة الشيخ فتاة جميلة عمرها ١٧ سنة اسمها (لهود) وهي قريبة له من (إثرة) وأعربت دون خجل عن رغبتها أن أتزوجها...، قلت للفتاة الجميلة: سأسافر الآن في بلاد البدو إلى هناك وهناك دون توقف أو استراحة، ولن يكون في وسعي أخذ امرأة معي، وإلا لكنت جلبت معي امرأة من بلدي، فردت: نساؤكم غير معتادات على ركوب الإبل، أما أنا فإنني قادرة على ركوب الناقة ليلا ونهارا كالرجل، فرددت: لكنني ليس لدي سوى جمل واحد، فردت: لا يهم، سأركب خلفك كرديفة وأتمسك بالغزال الخلفي من الشداد، وأنا لا أحتاج حتى إلى حبل لا من أجل الجلوس ولا من أجل الصعود، فقلت لها: هذا ممكن لكنني لن أستطيع قضاء حياتي بكاملها في

بلادكم الموحشة، بل إنني سأعود في يوم من الأيام إلى بلاد المسيحيين، وأنت لا تستطيعين الذهاب معي إلى هناك، فردت: ولم لا ؟ فهل سيقتلني المسيحيون لأنني امرأة؟ أفلا تستطيع حماية زوجتك؟ وأنت دون شك غني بما يكفي لأن توفر لي البرغل أو حفنة من الأرز وعددا قليلا من حبات التمر التي أحتاجها لحياتي اليومية، ولأن تشتري لي قميصا عندما أحتاج، فقلت: هذا سيكون أقل ما يمكنني تقديمه لك، ولكن أعلم أنك عندما تأتين إلى بلدي، حيث لا تفهمين اللغة وتجدين نفسك بين أناس كثر غرباء، ستمضين اليوم كله بالبكاء والعويل وتصرعينني بالمطالبة بالعودة إلى أمك وأبيك، فقالت: أنت تعتبرني غبية ! لماذا لن أكون قادرة على تعلّم لغتكم كما يتعلمها أطفالكم؟ إذا ما تزوجتني سأكون أيضا هكذا، ومهما فكرت بأمي وأبي وإخوتي فإنني أعدك بأنني لن أشكو بكلمة واحدة، وهكذا كانت ترد بطلاقة على كل حجة من حججي."[1]

أيضاً بتلفيظ أويتنج لهذا الحوار البسيط الساذج يتبدى لنا اعتناء كاتب الخطاب الرحلي بلغة السرد التي يعد الحوار من أهم دعائمها، فمنشئ الخطاب الرحلي وإن كان اهتمامه مُنْصَبًّا على الوصف الذي ينشده المتلقي إلا أنه لا يغفل الحوار الذي يرتب المشاهد الموصوفة، ويعنى بتتابعها بطريقة تبرز خطاب السرد حيث يؤكد السارد/الراوي أهميته، ويشكل

(١) رحلة داخل الجزيرة العربية، يوليوس أويتنج، ترجمة محمود كبيبو، عماد غانم ص ١٠٢. مثل هذا الحديث يعدّ من باب المداعبات الشائعة، وغالبا ما يحدث مثل هذا مع الفتيات الصغيرات، إذ يكون مثل هذا الموضوع مجالا خصبا ممتعا لقضاء الوقت.

المرجعية في خطاب رحلته، ويظهر قدرته على أن يجعل نصه ناقلا للحدث والصورة معاً.

قد يرصد الرحالة بعض العادات أو الممارسات مثل أساليب الضيافة وتقديم الطعام بطريقة تفصيلية تنم عن قدرة أدبية على ترهين فعل الرحلة وهو مما لا يأبه به المتناول لخطاب الرحلة لغير الغرض الأدبي. يتحدّث موزيل عن استضافة سعود الملحم له على وجبة عشاء فيقول:

"في العصر جاءني سلطان ليقودني إلى خيمة سعود. وكان قد اجتمع لديه حوالي مئة شخص في جلسة على هيئة المستطيل، وما إن دخلت الخيمة حتى هبوا جميعهم وقوفا، ولقد خصصت عندئذ بمكان الشرف عند الجدار الذي يفصل موضع الرجال في الخيمة عن موضع النساء. ثم دخل محمد بن سعود للسلام عليّ، وسار بي إلى موضع التشريف، وجلس هو في الوسط الغربي الطويل من الخيمة، وبعد تبادل التحيّات المعتادة قام أحد العبيد بصب قطرات من الماء على أصابع يدي اليمنى، ثم دخل علينا ستة عبيد حاملين صينية ضخمة فوقها أكوام من لحم الضأن والقمح المقشور (الفريكة) ووضعوها وسط المستطيل. ولقد دعاني محمد مع خمسة رجال آخرين إلى الأكل. وكان على يميني سلطان قاعدا القرفصاء، وإلى يساري تركي بن سعود وأخذ كلاهما يختاران أفضل قطع اللحم ويكومانها أمامي، وكان يقف خلف كل واحد منا عبد يحمل طبقا فيه ماء، ولم نكن قد أمضينا أكثر من أربع دقائق حتى نهضنا وعدنا إلى أماكننا السابقة ودعا محمد عشرة ضيوف آخرين للمشاركة في الطعام، وبعدئذ صارت الوليمة إلى خمسة عشر ضيفا، فثمانية عشر وأخيرا

عشرين. ولم يتخذ محمد مكانه حتى أنهى أولئك الضيوف مشاركتهم فجلس وثلاثة أطفال صغار إلى الصينية ليلتقطوا اللحم عن العظام. ذلك أن اللحم كان قد انتهى، إلا أنه بقي هناك ما يكفي من القمح المقشور ليوفر وجبة مشبعة، وبإشارة منه قام العبيد وحملوا الصينية والعظام وما بقي من القمح المقشور إلى النساء، لا يعنيهم أمر أولئك الحضور الذين لم يذوقوا من ذلك الطعام شيئا، أما الشيخ سعود العجوز فكان يجلس في الزاوية منشغلا برأس خروف."[1]

في هذا النص رصد موزيل وقوف الجميع حال دخوله الخيمة وفي هذا دلالة على مكانة موزيل لدى القوم، كذلك ينبي عن مدى حفاوتهم وإكرامهم للضيف. كذلك نلاحظ أن موزيل لم يكتف بوصف الصينية أنها ضخمة، لأن ذلك لم ينبي عن مدى هذه الضخامة بالرغم من ذكره لأكوام اللحم التي فوقها، فذكره للعبيد الستة الذين حملوا الصينية جعلنا ندرك إلى حدّ كبير مدى هذه الضخامة، كما يدل ذكره أنه عند رفع الصينية من الخيمة كان هناك من لم يأكل على دقة ملاحظة ترفع من المستوى السردي لهذا التلفيظ، وختم هذا الرصد لحفلة العشاء بانشغال الشيخ في الزاوية برأس خروف منتهى دقة التلفيظ والحرص على الرسم باللغة.

(١) في الصحراء العربية، ألويز موزيل، ترجمة الملاح ص ٢٨٩.

مما يبدو جليا عند الدراسة الفاحصة العميقة للخطاب الرحلي اختلاف بناء هذا الخطاب وطريقة تلفيظه من رحالة إلى آخر، إذ لكل رحالة بصمته التي تعكس شخصيته الإبداعية وثقافته وقدرته على السرد والوصف، فبينما نجد موزيل يعتمد على النقل الأمين المحترم لحكاية الآخر للأحداث وكذلك احترامه وإجلاله للآخرين نجد يوليوس أويتنج يلقي بظلال سخريته في خطابه الرحلي، فالسرد عنده يستدعي الخيال الذي تغذيه خلفيته عن المحكي عنه، حيث حياة السلب والنهب وطبيعة الصحراء.

إن تناول الخطاب الرحلي بالدراسة من زاوية أنه خطاب أدبي إبداعي يستبطن أنساقا جمالية جديدة يفرز مادة أدبية ذات طبيعة لغوية تغني البحث الأدبي، وتمدّه ببنى لغوية جديدة. فالأدب ذو طبيعة تكاملية تأبى التجزئة والشرذمة، فمعالجة مادته ضمن سياقها يعطيه المشروعية والهوية، لأن هذا الخطاب الأدبي يتجه لاكتساب طبيعة ذات شمولية تتنامى، والخطاب الدارس يكون بمثابة خطاب إبداعي يروم كشف الخطاب الذي يتناوله ويتماهى معه.

بناء على ذلك يختلف خطاب الرحلة بأدبيته عن الأنواع الأدبية الأخرى، في بنائه وصياغته، وينفرد بخصوصية تأتت له من أخذه على عاتقه التعبير عن واقع رآه الرحالة وعاش أحداثه؛ فهو حين يكتب يزعم أنه يرصد ويوثق مشاهد وأحداثا حقيقية، محاولا أن تتسم هذه الكتابة بالدقة والمصداقية إلى أبعد حد، وهذا الصنيع يجعله مغايرا لما يكتبه المبدع من مادة تخييلية حال القص أو كتابة الشعر مثلا، ومع أن هذه الأنواع لا تخلو من نقل واقعي، فإن المبدع لا يدّعي الرصد ونقل صورة الواقع

بمشاهداته وأحداثه، لأن ذلك لا يتحقق بصورة تامة، فمنشئ الخطاب الرحلي يسكب فيه رؤاه ومواقفه وقد يهذِّبُ هذا الواقعَ فلا ينقل ما لا يلائم مما يؤلم أو يخجل وما لا يتماهى مع قناعاته ومعتقداته. لذلك ينبغي أن يتم تناول هذا الخطاب الرحلي ذي الخصوصية بأدوات خاصة تلائمه وتكشف خبيئه، أدوات تفرده بنسقية تناسبه وتضمن له خصوصيته وتراعي في الوقت ذاته إدراجه ضمن نسق السرد في الأدب بشكل عام. ذلك أن المناهج النقدية الحديثة توفر للدارس أدوات من شأنها تحليل المستوى اللغوي، حيث ينتج هذا التحليل ويبرز العديد من السمات منها ما يتعلق بطبيعة كاتب الخطاب الرحلي ومنها ما يجلّي طرائق كتابة هذا الخطاب التي اعتمدها الكاتب وأصبحت كبصمة خاصة به، كذلك يبرز السمات السردية في هذا الخطاب والتي تضمن شرعية أدبيته، ومن هذه الأدبية يسبر غور الدلالات الثقافية والاجتماعية انطلاقا من محاورة النص الرحلي واستخراج مكنوناته.

خلاصة البحث إن الخطاب الرحلي نَصٌّ يزخر بالتسجيل الوصفي والحكائي وينقل الكثير من المعلومات والدراسة الجادة المتعمقة بأدوات فنية متخصصة تخرج مكنون ذخائره البنيوية والأسلوبية، ليكون نصًّا مائزاً في إطاره العام، إضافة إلى إبراز خصوصية كل نص رحلي لتتحقق فرادته التي لا يشاركه فيها نص رحلي آخر، فالوصول إلى ذاتية الكاتب وتحري طريقته الخاصة في إنشاء نصه وتبيان الوشائج التي تربط هذا النص بنسق الخطاب الرحلي فالسردي وصولاً إلى الأدبي بشكل عام؛ ليصبح المعوّل على تدبر الكتابة بأدوات القراءة.

المصادر والمراجع

- إبـراهيم، عبـد الله (التخيـل التـاريخي) الـسرد والإمبراطوريـة، والتجربـة الاسـتعمارية، المؤسـسة العربيـة للدراسـات والنـشر، بـيروت – لبنـان، ط١ ٢٠١١م.
- الإدريسي، يوسف (التخييل والـشعر) منـشورات ضـفاف، بـيروت – لبنـان، ط١ ٢٠١٢م
- أوزيكـي، إينـاس – ديـبري، (نظريـات وتطبيقـات في الترجمـة الأدبيـة) ترجمة: الصادق قسومة، المركز الوطني للترجمة، تونس، ط١، ٢٠١٥.
- أويتنج، يوليوس (رحلة داخل الجزيرة العربية) ترجمة: محمود كبيبو وعماد غانم، دار الوراق للنشر لندن ط١، ٢٠١٤م.
- البادي، عوض (الرحالة الأوربيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف ووادي السرحان، ١٨٤٥- ١٩٢٢م) الدار العربية للموسوعات، بيروت – لبنان ، ط٢ – ٢٠٠٢م.
- بلانشو، موريس (أسئلة الكتابة) ترجمة نعيمة بنعبد العلبي وعبد السلام بنعبد العلبي، دار توبقال، الدار البيضاء – المغرب، ط١ ٢٠٠٤.
- بلنت، آن (حج إلى ربوع نجد) ترجمة : أحمد إيبش، دار الوراق – لندن ط ١، ٢٠١٣.
- بلنـت، آن (رحلـة إلى نجـد) ترجمـة : أحمـد إيـبش، دار المـدى للثقافـة والنشر، دمشق – سورية، ط ١، ٢٠٠٥م.
- بلنـت، آن (رحلـة إلى بـلاد نجـد) ترجمـة : محمـد أنعـم غالـب، دار اليمامـة للبحث والترجمة وانشر، الرياض – السعودية، ط٢ ١٩٧٨م.
- بـن جنيـدل، سـعد بـن عبـد الله (بـلاد الجـوف أو دومـة الجنـدل) دار اليمامـة للبحث والترجمة والنشر، الرياض – السعودية ط١- ١٩٨١م.

- بوطبسو، فاطمة أدبية الخطاب في رحلة (نور الأندلس) لأمين الريحاني، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة منتوري – قسنطينة – الجزائر سنة ٢٠١١م.
- بيركهارت، جون لويس (رحلات إلى شبه الجزيرة العربية) ترجمة هتاف عبد الله، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت – لبنان ط١، ٢٠٠٥م.
- بيل، جيرترود (رسائل جيرترود بيل) اختارتها وصنفتها : ليدي بيل، ترجمة رزق الله بطرس، مراجعة وتعليق وتقديم: ماجد شبّر، دار الوراق، لندن المملكة المتحدة ط١- ٢٠٠٨م.
- تايلور، بايارد (الترحال في جزيرة العرب) ترجمة : رنا جزائري، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ط١ ٢٠١٢م أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة.
- التوزاني، خالد (الرحلة وفتنة العجيب: بين الكتابة والتلقّي) دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، ط١- ٢٠١٧م.
- الجاسر، حمد (رحالة غربيون في بلادنا) دار اليمامة للبحث والترجمة وانشر، الرياض – السعودية، ط١ – ١٤١٧هـ.
- جوارماني، كارلو كلاوديو (نجد الشمالي) رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم، ترجمة أحمد إيبش هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة ط١، ٢٠٠٩م.
- جوارماني، كارلو (نجد الشمالية من القدس إلى مدينة عنيزة في القصيم) ترجمة بطرس رزق الله، دار الوراق، لندن ط١، ٢٠١٥م.
- حليفي، شعيب (الرحلة في الأدب العربي) دار رؤية للنشر والتوزيع القاهرة – مصر ط١ ٢٠٠٦م.
- دبّيش، لطفي (الإنسان والمكان في الثقافة العربية الإسلامية: قراءة في نصوص الجغرافيين والرّحالين والمسالكيين العرب إلى القرن الخامس

الهجري) منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس – تونس ط١، ٢٠١١م.

- دبّيش، لطفي (التواصل الحضاري في الثقافة العربية الإسلامية: من خلال مدونة الجغرافيين المسالكيين والرّحالين العرب والمسلمين) مركز النشر الجامعي، منوبة – تونس ط ١، ٢٠١٠م.
- داوتي، تشارلز.م (رحلات تشارلز داوتي في الجزيرة العربية) ترجمة عدنان حسن، دار الوراق، لندن ط١ ٢٠٠٩م.
- الروبي، ألفت كمال (نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين) دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت- لبنان ط١، ٢٠٠٧م.
- ريكور، بول (الذاكرة والسرد) ترجمة : د سمير مندي، كنوز المعرفة عمان – الأردن، ط١ ٢٠١٦م.
- السويلم، أريج بنت محمد، السرد الرحلي والمتخيل في رحلتي السيرافي والغرناطي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، ط١- ٢٠١٧م.
- شتراوس، كلود ليفي (مقالات في الأناسة) اختارها ونقلها إلى العربية د. حسن قبيسي، دار التنوير للطباعة والنشر ب، بيروت – لبنان، ط٢، ٢٠٠٥م.
- صيداوي، رفيف رضا (الرواية العربية بين الواقع والتخييل) دار الفارابي، بيروت – لبنان، ط١ ٢٠٠٨م.
- عزالدين، حسن البنا (قراءة الآخر قراءة الأنا نظرية التلقي وتطبيقاتها في النقد الأدبي العربي المعاصر) الهيئة العامة للثقافة، القاهرة ط١ ٢٠٠٨م.
- العمامي، محمد نجيب (بحوث في السرد العربي)، مكتبة علاء الدين، صفاقس – تونس، ط١، ٢٠٠٥م.

- فوردر، آرتشيبولد (مغامرات بين العرب، رحلات في الأردن وفلسطين بين ١٨٩١- ١٨٩٩م، ورحلة إلى جوف السرحان ١٩٠٠- ١٩٠١م) ترجمة: مارية عثمان، تحرير وتعليق: د.أحمد إيبش، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، ط١، ٢٠٠١م، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة.
- القاضي، كوثر محمد (شعرية السرد في القصة القصيرة) وزارة الثقافة والإعلام الرياض- السعودية ط١ ٢٠٠٩م.
- القاضي، محمد (تحليل النص السردي بين النظرية والتطبيق) مسكلياني للنشر، تونس ط٢، ٢٠٠٣م.
- كليطو، عبد الفتاح (الأدب والغرابة) دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، ط١٠ – ٢٠١٣م.
- كيليطو، عبد الفتاح (الأدب والارتياب) دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، ط٢، ٢٠١٣م.
- كليطو، عبد الفتاح (أتكلم جميع اللغات، لكن بالعربية) دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، ط١ – ٢٠١٣م.
- كليطو، عبد الفتاح، (جذور السرد) دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب ط١- ٢٠١٥م.
- كليطو، عبد الفتاح (مسار) دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب ط١ ٢٠١٤م.
- المبخوت، شكري، سيرة الغائب سيرة الآتي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين، مسكلياني للنشر، تونس ط٣- ٢٠١٥م.
- المجبري، عبد الرزاق (عتبات النص الجغرافي، رحلة ابن بطوطة أنموذجا) جامعة القيروان، صفاقس – تونس ،ط ١- ٢٠١٣م.
- مراد، بركات محمد (الإنسان والرحلة والاستكشاف) كنوز المعرفة، جدة – السعودية ط١ – ٢٠١٢م.

- مرتاض، عبد الملك (في نظرية الرواية : بحث في تقنيات السرد) عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٨م.
- المرزوقي، منصف (الرحلة : مذكرات آدمي) الدار الماوسطية للنشر، تونس ط٢ ٢٠١٦م.
- المغيربي، صالح(أدب الرحلة في الغرب الإسلامي) ترجمة محمود طرشونة، المركز الوطني للترجمة، تونس ط١ ، ٢٠١٣م.
- مؤدن، عبد الرحيم (الرحلة في الأدب المغربي)أفريقيا الشرق، الدار البيضاء – المغرب ط١ ٢٠٠٦م.
- موزيل، ألويز (أخلاق الرولة وعاداتهم) ترجمة وتحقيق : محمد بن سليمان السديس، مكتبة التوبة للنشر والتوزيع الرياض - السعودية، ط٢ ،١٩٩٧م.
- موزيل، ألويز (في الصحراء العربية رحلات ومغامرات في شمال جزيرة العرب ١٩٠٨- ١٩١٤م) ترجمة عبد الإله الملاح، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة ط١ ، ٢٠١٠م.
- موزيل، ألويس(في الصحراء العربية) ترجمة : رزق الله بطرس، دار الوراق للنشر، لندن، المملكة المتحدة ط١ ، ٢٠١١م.
- موزيل، ألويس (عن التاريخ المعاصر لشبه الجزيرة العربية) ترجمة : محمود كبيبو، تدقيق ومراجعة : ماجد شبّر، شركة دار الورّاق للنشر المحدودة، لندن – المملكة المتحدة، ط٢- ٢٠١٢م.
- نولده، البارون إدوارد (رحلة إلى وسط الجزيرة العربية ١٨٩٢) ترجمة د. عماد الدين غانم، دار الوراق – لندن، ط١ ٢٠١٥م.
- هوبير، شارل (رحلة في الجزيرة العربية الوسطى) ترجمة إليسار سعادة، دار كتب، بيروت – لبنان ط١ ، ٢٠٠٣م.
- ونستون، إتش.في.إف (ليدي آن بلنت : السيرة الذاتية) دار برزان للنشر، بيروت- لبنان، ط٢، ٢٠٠٦م.

- يقطين، سعيد (السرد العربي- مفاهيم وتجليات) الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠١٢م.

الدوريات:

- البادي، عوض (منطقة الجوف في أدب الرحلة الأوربي) الجوبة – مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية- السعودية مجلد ٤٢ - ٢٠١٤م.
- حاتمي، محمد (في خطاب أدب الرحلة) مجلة فكر ونقد- المغرب، عدد ٨٧ مارس ٢٠٠٧
- ذاكر، عبد النبي (الرحلة وسؤال الكتابة) مجلة جذور مجلد ٨ عدد ١٥ ص ٢٣٩ – ٢٤٠.
- قفصي، فوزية (شعرية الوصف في أدب الرحلة- رحلة ابن بطوطة أنموذجا) مجلة التواصل - جامعة باجي مختار بعنابة – الجزائر ع ٣٧، ٢٠١٤م.
- لشكر، حسن (المتكلم وإستراتيجية الخطاب في الرحلة) ندوة المتكلم في السرد العربي القديم- جامعة منوبة – تونس، ٢٠١١م.
- د . محمد الداهي، إشكالية التلفظ في النظرية السيميائية.

http://www.mohamed-dahi.net/site/news.php?action=view&id=٨٦

- يحياوي، رشيد (الرحلة والشعر: سؤال المكون النوعي) الفكر العربي – معهد الإنماء – لبنان مج١٨ ع ٨٩ ، ١٩٩٧م.
- يقطين، سعيد (خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية) علامات في النقد الأدبي- النادي الأدبي الثقافي بجدة – السعودية مج٣، ج٩، ١٩٩٣م.

* * *

- Yahyāwī, R. (1997). Al-rihla wa al-shi'r: Suāl al-mukawwin al-naw'ī. *Majallat Al-Fikr Al-'Arabī, 18*(89).
- Yaqtīn, S. (1993). Khitāb al-rihla al-'arabī wa mukawwināṭuh al-bunyawiyya. *Majallat 'Alāmāt Fī Al-Naqd Al-Adabī, 3*(9).
- Yaqtīn, S. (2012). *Al-sard al-'arabī: Mafāhīm wa tajalliyāt* (1st ed.). Beirut: Al-Dār Al-'Arabiyya Lil-'Ulūm.

* * *

- Ozīkī, E. (2015). *Nazhariyyāt wa tatbīqāt fī al-tarjama al-adabiyya* (1st ed.). A. Qassūma (Trans.). Tunisia: Al-Markaz Al-Watanī Lil-Tarjama.
- Al-Qādhī, K. (2009). *Shi'riyyat al-sard fī al-qissa al-qasīra*. Saudi Arabia: Ministry of Culture and Information.
- Qafsī, F. (2014). Shi'riyyat al-wasf fī adab al-rihla: Rihlat ibn battūta unmūthajan. *Majallat Al-Tawāsul*, (37).
- Al-Qādhī, M. (2003). *Tahlīl al-nass al-sardī bayn al-nazhariyya wa al-tatbīq* (2nd ed.). Tunisia: Maskalyānī Lil-Nashr.
- Racor, P. (2016). *Nazhariyyat al-shi'r 'ind al-falāsifa al-muslimīn* (1st ed.). S. Mandī (Trans.). Amman: Kunūz Al-Ma'rifa.
- Al-Rūbī, U. (2007). *Nazhariyyat al-shi'r 'ind al-falāsifa al-muslimīn*. Beirut: Dār Al-Tanwīr Lil-Tibā'a Wa Al-Nashr.
- Saydāwī, R. (2008). *Al-riwāya al-'arabiyya bayn al-wāqi' wa al-takhyīl* (1st ed.). Beirut: Dār Al-Fārābī.
- Shtrous, K. (2005). *Maqālāt fī al-anāsa* (2nd ed.). H. Qubaysī (Trans.). Beirut: Dār Al-Tanwīr Lil-Tibā'a Wa Al-Nashr.
- Al-Swailim, A. (2017). *Al-sard al-rahlī wa al-mutakhayyal fī rihlatay al-sīrāfī wa al-gharnātī* (1st ed.). Abu-Dhabi: Dār Al-Suwaidī Lil-Nashr Wa Al-Tawzī'.
- Thākir, 'A. (n.d.). Al-rihla wa suāl al-kitāba. *Majallat Juthūr, 8*(15).
- Al-Tūzānī, Kh. (2017). *Al-rihla wa fitnat al-'ajīb: Bayn al-kitāba wa al-talaqqī* (1st ed.). Abu-Dhabi: Dār Al-Suwaidī Lil-Nashr Wa Al-Tawzī'.
- Tylor, B. (2012). *Al-tirhāl fī jazīrat al-'arab* (1st ed.). R. Jazāirī (Trans.). Abu-Dhabi: Hayat Abū-Dhabī Lil-Siyāha Wa Al-Thaqāfa.
- Winston, H. (2006). *Lady and blent: Al-sīra al-thātiyya* (2nd ed.). Beirut: Dār Barzān Lil-Nashr.

- Al-Majbarī, ʿA. (2013). *ʿAtabāt al-nas al-jughrāfī: Rihlat ibn battūta unmūthajan* (1st ed.). Tunisia: University of Kairouan.
- Al-Marzūqī, M. (2016). *Al-rihla: Muthakkirāt ādamī* (2nd ed.). Tunisia: Al-Dār Al-Māwasatiyya.
- Muaddin, ʿA. (2006). *Al-rihla fī al-adab al-maghribī* (1st ed.). Cazablanca: Dār Afrīqyā Al-Sharq.
- Al-Mughīrī, S. (2013). *Adab al-rihla fī al-gharb al-islāmī* (1st ed.). M. Tarsūna (Trans.). Tunisia: Al-Markaz Al-Watanī Lil-Tarjama.
- Murād, B. (2012). *Al-insān wa al-rihla wa al-istikshāf* (1st ed.). Jaddah: Kunūz Al-Maʿrifa.
- Murtādh, ʿA. (1998). *Fī nazhariyyat al-riwāya: Bahth fī tiqniyāt al-sard*. Kuwait: ʿAālam Al-Maʿrifa.
- Mūzīl, A. (1997). *Akhlāq al-ruwala wa ʿādātihim* (2nd ed.). M. Al-Sudais (Trans.). Riyadh: Maktabat Al-Tawba Lil-Nashr Wa Al-Tawzīʿ.
- Mūzīl, A. (2010). *Fī al-sahrā al-ʿarabiyya rahalāt wa mughāmarāt fī shamāl jazīrat al-ʿarab 1908-1914* (1st ed.). ʿA. Al-Mallāh (Trans.). Abu-Dhabi: Hayat Abū-Dhabī Lil-Siyāha Wa Al-Thaqāfa.
- Mūzīl, A. (2011). *Fī al-sahrā al-ʿarabiyya* (1st ed.). R. Butrus (Trans.). London: Dār Al-Warrāq Lil-Nashr.
- Mūzīl, A. (2012). *ʿAn al-tārīkh al-muʿāsir li-shibh al-jazīra al-ʿarabiyya* (2nd ed.). M. Kabībū (Trans.). London: Dār Al-Warrāq Lil-Nashr.
- Nolda, A. (2015). *Rihla ilā wasat al-jazīra al-ʿarabiyya 1892* (1st ed.). ʿE. Ghānim (Trans.). London: Dār Al-Warrāq Lil-Nashr.
- Oteng, Y. (2014). *Rihla dākhil al-jazīra al-ʿarabiyya* (1st ed.). M. Kabībū & ʿE. Ghānim (Trans.). London: Dār Al-Warrāq Lil-Nashr.

- Ibrāhīm, ʿA. (2011). *Al-takhayyul al-tārīkhī: Al-sard wa al-imbarātūriyya wa al-tajruba al-istiʿmāriyya* (1st ed.). Beirut: Al-Muʾassasa Al-ʿArabiyya Lil-Dirāsāt Wa Al-Nashr.
- Al-Idrīsī, Y. (2012). *Al-takhayyul wa al-shiʿr* (1st ed.). Beirut: Manshūrāt Dhifāf.
- ʿIz-Al-Dīn, H. (2008). *Qirāat al-ākhar qirāat al-anā: Nazhariyyat al-talaqqī wa tatbīqātuhā fī al-naqd al-adabī al-ʿarabī al-muʿāsir* (1st ed.). Cairo: Al-Haya Al-ʿAāmma Lil-Thaqāfa.
- Al-Jāsir, H. (1996). *Rahhāla gharbiyūn fī bilādinā* (1st ed.). Riyadh: Dār Al-Yamāma Lil-Bahth Wa Al-Tarjama Wa Al-Nashr.
- Junaidil, S. (1981). *Bilād al-jawf aw dawmat al-jandal* (1st ed.). Riyadh: Dār Al-Yamāma Lil-Bahth Wa Al-Tarjama Wa Al-Nashr.
- Kīlītū, ʿA. (2013). *Al-adab wa al-gharāba: Dirāsāt bunyawiyya fī al-adab al-ʿarabī* (10th ed.). Cazablanca: Dār Tobiqāl.
- Kīlītū, ʿA. (2013). *Al-adab wa al-irtiyāb* (2nd ed.). Cazablanca: Dār Tobiqāl Lil-Nashr.
- Kīlītū, ʿA. (2013). *Atakallam jamīʿ al-lughāt lākin bil-ʿarabiyya* (1st ed.). Cazablanca: Dār Tobiqāl Lil-Nashr.
- Kīlītū, ʿA. (2014). *Masār* (1st ed.). Cazablanca: Dār Tobiqāl Lil-Nashr.
- Kīlītū, ʿA. (2015). *Juthūr al-sard* (1st ed.). Cazablanca: Dār Tobiqāl Lil-Nashr.
- Lushkur, H. (2011). Al-mutakallim wa istirātījiyyat al-khitāb fī al-rihla. Paper presented at Nadwat al-Mutakallim Fī Al-Sard Al-ʿArabī Al-Qadīm, Manouba University, Tunisia.
- Al-Mabkhūt, Sh. (2015). *Sīrat al-ghāib sīrat al-ghāib: Al-sīra al-thātiyya fī kitāb al-ayām li-tāhā husain* (3rd ed.). Tunisia: Maskalyānī Lil-Nashr.

- Douti, Ch. (2009). *Rahalāt Charles Douti fī al-jazīra al-'arabiyya* (1st ed.). 'A. Hasan (Trans.). London: Dār Al-Warrāq.
- Dubayyish, L. (2010). *Al-tawāsul al-hadhārī fī al-thaqāfa al-'arabiyya al-islāmiyya: Min khilāl mudawanat al-jughrāfiyyīn al-musālikīn wa al-rahhālīn al-'arab wa al-muslimīn* (1st ed.). Manouba, Tunisia: Markaz Al-Nashr Al-Jāmi'ī.
- Dubayyish, L. (2011). *Al-insān wa al-makān fī al-thaqāfa al-'arabiyya al-islāmiyya: Qirā'a fī nusūs al-jughrāfiyyīn wa al-rahhālīn wa al-musālikīn al-'arab ilā al-qarn al-khāmis al-hijrī* (1st ed.). Tunisia: Faculty of Humanities and Social Sciences, Tunis University.
- Ford, A. (2001). *Mughāmarāt bayn al-'arab: Rihlāt fī al-urdun wa falastīn bayn 1891-1899 wa rihla ilā jawf al-sarhān 1900-1901* (1st ed.). A. Ebish (Ed.). M. 'Othmān (Trans.). Abu-Dhabi: Hayat Abū-Dhabī Lil-Siyāha Wa Al-Thaqāfa.
- Guarmani, K. (2009). *Najd al-shamālī: Rihla min alquds ilā 'unaiza fī al-qasīm* (1st ed.). A. Ebish (Trans.). Abu-Dhabi: Hayat Abū-Dhabī Lil-Siyāha Wa Al-Thaqāfa.
- Guarmani, K. (2015). *Najd al-shamāliyya min al-quds ilā madīnat 'unaiza fī al-qasīm* (1st ed.). B. Rizq-Allah (Trans.). London: Dār Al-Warrāq.
- Halīfī, Sh. (2006). *Al-rihla fī al-adab al-'arabī* (1st ed.). Cairo: Dār Ruya Lil-Nashr Wa Al-Tawzī'.
- Hātimī, M. (2007). Fī khitāb adab al-rihla. *Majallat Fikr Wa Naqd*, (87).
- Hobir, Sh. (2003). *Rihla fī al-jazīra al-'arabiyya al-wustā* (1st ed.). E. Sa'āda (Trans.). Beirut: Dār Kutub.

List of References:

- Al-ʿAmāmī, M. (2005). *Buhūth fī al-sard al-adabī* (1st ed.). Tunisia: Maktabat ʿAlā Al-Dīn.
- Al-Bādī, ʿA. (2002). *Al-rahhāla al-orubbiyyūn fī shamāl al-jazīra al-ʿarabiyya: Mantiqat al-jūf wa wādī al-sarhān* (2nd ed.). Beirut: Al-Dār Al-ʿArabiyya Lil-Mawsūʿāt.
- Al-Bādī, ʿA. (2014). Mantiqat al-jawf fī adab al-rihla al-ūrubbī. *Majallat Al-Jawwiyya. 42.*
- Bell, J. (2008). *Rasāil Jertrud Bell* (1st ed.). L. Bell (Ed.). R. Butrus (Trans.). London: Dār Al-Warrāq.
- Berckhart, J. (2005). *Rihlāt ilā shibh al-jazīra al-ʿarabiyya* (1st ed.). H. ʿAbdullah (Trans.). Beirut: Muassasat Al-Intishār Al-ʿArabī.
- Blansho, M. (2004). *Asila kitābiyya* (1st ed.). N. Al-ʿAlbī & ʿA Al-ʿAlbī (Trans.) Cazablanca: Dār Tobiīqāl.
- Blent, A. (1978). *Rihla ilā bilād najd* (2nd ed.). M. Ghālib (Trans.) Riyadh: Dār Al-Yamāma Lil-Bahth Wa Al-Tarjama Wa Al-Nashr.
- Blent, A. (2005). *Rihla ilā najd* (1st ed.). A. Ebish (Trans.) Damascus: Dār Al-Madā Lil-Thaqāfa Wa Al-Nashr.
- Blent, A. (2013). *Hajj ilā rubūʿ najd* (1st ed.). A. Ebish (Trans.) London: Dār Al-Waraq.
- Butabsu, F. (2011). *Adabiyyat al-khūtāb fī rihlat nūr al-andalus li-amīn al-rayhānī* (Unpublished master's thesis). Mentouri University, Constantine, Algeria.
- Al-Dāhī, M. (2010, June 7). Ishkāliyyat al-talaffuzh fī al-nazhariyya al-sīmyāiyya. Retrieved from http://www.mohamed-dahi.net/site/news.php?action=view&id=86

Narrative and Description in Translated Travel Discourse RiHalat Al-Gharbi'een ila Shamal Al-Jazerrah Al-Arabiah Unmothajan (Westerners Travels to the North of the Arabian Peninsula: a Model)

Dr.Mohammad Bin RaDhi AlShareef
Department of Arabic College of Education and Arts
Northern Borders University

Abstract:

The purpose of this research paper is to address a theoretical issue by applying it to several journeys that shared temporal and spatial proximity through which Western authors produced travelling literature/discourse describing the northern Arabian Peninsula in the second half of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century. The research aims at highlighting the richness of the translated prose of Western travel literature/discourse. The authors of this literature worked hard to describe places, people, customs and traditions carefully, including all walks of life and reporting the traveler narrator's description to make the report based on it.

The paper concludes that travel literature shows texts rich with descriptive and narrative records and information. Therefore, it makes a text-types worthy of serious in-depth study utilizing specialized technical methods that highlight its features in its general context, and its specificity, which secure its unique entity which is unmatched by any other travel corpus. Hence, we can reveal the author's identity, scrutinize his own individual method of composing his text, and show the bond that links this text-type to the stream of narrative travel discourse, and ultimately to literature at large.

Keywords: Travel discourse - Narration and description - Imagination and embodiment - Journeys of Westerners - Literariness of travel discourse.